الباب الثانى

شعر الفرق الإسلامية

١ — الفصل الأول : شعر الشيعة

٢ — الفصل الثانى : شعر الخوارج

٣ — الفصل الثالث : شعر الزبيريين

٤ — الفصل الرابع : شعر المتكلمين

الفصل الأول

شعر الشيعة

١

يرجع تاريخ الشعر الشيعى إلى ما قبل ظهور الشيعة حزباً له أفكاره ومعتقداته بسنوات طويلة ، فقد عبر هذا الشعر أول الأمر عن العواطف المطلقة التى أحاطت ببنى هاشم وبشخصية على بن أبى طالب منذ وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وربما لم تكن هذه العواطف خالصة لوجه على وآله وإنما توسلا لمصلحة خاصة كتلك التى حرص عليها أبو سفيان بن حرب غداة البيعة لأبى بكر عندما مر ببيت علىّ بن أبى طالب محرضا بنى هاشم على ألا يُطمعوا فيهم رهط أبى بكر أو رهط عمر إذ هم ليسوا بأحق منهم بالخلافة منشداً ذلك المعنى فى قوله :

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم ... وليس لها إلا أبو حسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم ... فإنك بالأمر الذى يرتجى ملى [1]

ولقد ازورّ علىّ عن تحريض أبى سفيان الذى كان يطمع فى أن يظل الأمر فى بنى هاشم حتى لا تغلبهم عليه فيما بعد تيم أو عدى ، كما كان يطمع فى أن يختلف الناس فقد يكون لرهطه فى اختلافهم غنم ، ودخل علىّ بعد ذلك فيما دخل فيه الناس .

وبعد مقتل عمر ظهر فى مجلس الشورى ما يمكن أن يسمى بنواة الحزب

---

(١) شرح نهج البلاغة حـ ٦ ص ٧ .

الشيعى إذ رأى بعض الصحابة أن الأمر لا يجب أن ينصرف عن بنى هاشم، ولم يكد ينفض مجلس الشورى بمبايعة عثمان حتى ترددت أبيات لبعض ولد أبى لهب يتحسر فيها على انصراف الأمر عن بنى هاشم وعن علىّ بالذات وكان فى نظرهم أجدر بهذا الأمر من سواه لسبقه وفقهه وتقواه ، تقول الأبيات :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن
أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعلم الناس بالقرآن والسنن[1]

وعلى قدر ما انتقد علىّ سياسة عثمان فى سنيه الأخيرة فإننا لا نجد صدى لهذا فى شعر الشيعة ، ويبدو أن علياً لم يكن ليقرّ أن يتجرأ شاعر من شيعته على أمير المؤمنين مهما جار عن القصْد أو أخطأ السبيل، وكان يبدو لهم أنه لا يلبث وقد طعن فى السن أن يموت وأن يشق علىّ من ثم طريقه إلى الحكم دون منازع ولهذا فقد ظل الشعر الشيعى محايداً لعثمان .

وما تكاد الثورة تنشب بعثمان وتنتهى بمقتله على أيدى الثوار ، حتى تشيع أبيات من الشعر فيما بين السبئية المشتركين فى الثورة تعلن إلقاء مهام الحكم على عاتق علىّ وتدعوه إلى أن يحذر مصير عثمان ، على هذا النحو :

خذها إليك واحذرن أباحسن ... إنا نمرّ الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن ... بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلَيْنٍ كالشطن ... حتى يمُرَّن على غير عنن[2]

ويرضخ علىّ لمطالب الثوار ويبايعونه ويبايعه غيرهم ، وتبقى طائفة من كبار الصحابة دون أن تبايعه ، ويدخل فى هذه الأثناء رجل على معاوية مسلماً عليه بالخلافة قائلا : أنا الحجاج بن خزيمة بن الصمة ، قصدتك بنعى عثمان ثم يضيف :

---

(١) شرح نهج البلاغة / حـ ٦ / ص ٨
(٢) الطبرى / حـ ٤ / ٧١

إن بنى عمك عبد المطلب هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالوثب فثب وسرّ مسير المحزئل المتلئب[١]

ولم يكن معاوية بحاجة إلى من يغريه بالوثوب ولا إلى من يقرر له أنه إنما يقوى بما لا يقوى به علىّ لأن معه قوماً لا يقولون إذا سكت ويسكتون إذا نطق ، ولا يسألون إذا أمر بخلاف تلك الشيعة التى تحيط بعلىّ ، يقولون إذا قال ويسألون إذا سكت .

ولهذا فقليل معاوية إذن خير من كثير علىّ ، ولن يرضى علىّ إلا بسخط معاوية كما أنه لن يرضى بالعراق دون الشام ، وقد عبر معاوية عن هذه المعانى فى رده على الحجاج بن خزيمة الذى نعى إليه عثمان وقال فيه :

أتانىَ أمر فيه للناس غمة وفيه بكاء للعيون طويل
مصاب أمير المؤمنين وهذه تكاد لها صمّ الجبال تزول
تداعت عليه بالمدينة عصبة فريقان منهم قاتل وخذول
سألقحها حرباً عواناً ملحة وإنى بها من عامنا لكفيل[٢]

وحقّاً ، لقد سقطت ثمرة الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان فى حجر علىّ ، وزج باسمه فيها وأشارت إليه أصابع الاتهام التى يحركها بنو أمية فقال حسان بن ثابت :

ياليت شعرى وليت الطير تخبرنى ما كان شأن على وابن عفانا
لتسمعن وشيكاً فى ديارهم الله أكبر ياثارات عثمانا[٣]

وتوالت اتهامات الأمويين لعلى وبنى هاشم بأنهم قتلوا عثمان ليخلوا لهم وجه الخلافة وقد انتهب علىّ ما كان فى دار الخليفة المقتول من سلاح وكراع ، وبنو أمية لا ينسون لهم هذا الصنيع أبد الدهر . وكان هذا الاتهام الصريح موجهاً

---

(١) الأخبار الطوال / ص ١٥٦
(٢) الأخبار الطوال / ص ١٥٦
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٣٤

من الوليد بن عقبة أخى عثمان لأمه ويجرى على هذا النحو :

بنى هاشم إيه فما كان بيننا ... وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ... ولا تنهبوه لا تحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه ... كما غدرت يوما بكسرى مرازبه
بنى هاشم لا تعجلوا بإقادة ... سواء علينا قاتلوه وسالبه
وإنا وإياكم وما كان منكم ... كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
بنى هاشم كيف التعاقد بيننا ... وعند علىّ سيفه ونجائبه
لعمرك لا أنسى ابن أروى وقتله ... وهل ينسين الماء ما عاش شاربه
وإنى لمجتاب إليكم بجحفل ... يصم السميع جرسه وجلائبه[1]

وقد نهض الفضل بن العباس بن أبى لهب ليرد على الوليد ولينقض اتهامه نقضا ، فبنو هاشم أبرياء من دم عثمان ونهبه ، وإنما أهل مصر هم الذين نهبوه بعد أن قتلوه ولم يكن على ليشترك فى هذه الفعلة الشنعاء ليرقى منها إلى الخلافة إذ هو جد يرى بها دون حاجة تلجئه إلى مثل هذا السلوك المشين ، وليس هناك أجدر منه بعد النبى ، بينما الوليد الذى يتباكى على مقتل عثمان فاسق نزل بفسقه قرآن وهو من ثم ليس هناك ، وهو وحزبه أشقياء بافتئاتهم على علىّ :

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم ... أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا ... فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان ولىّ العهد بعد محمد ... علىّ وفى كل المواطن صاحبه
علىّ ولىّ الله أظهر دينه ... وأنت مع الأشقين فيما تحاربه
وقد أنزل الرحمن أنك فاسق ... فمالك فى الإسلام سهم تطالبه[2]

ويضطر علىّ إلى أن يدخل بأهل الكوفة معركة الجمل فى مواجهة أهل البصرة الذين استمالهم الزبير وطلحة بعد أن نكثا بيعته وخرجا عليه يطلبان بدم عثمان ،

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٣٤ ، الأغانى / حـ ٥ / ص ١٢٠ ، الكامل للمبرد ص ٤٤٤

(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٣٤

وكان خروج السيدة عائشة معهما مثيراً لجمهور المسلمين فرأوا فيه خروجاً على ما أمر به النبي نساءه من أن يقرن فى بيوتهن .

ولقد كان بين السيدة عائشة والسيدة أم سلمة تلاوم فى خروجها ونصح لم تصغ إليه ، وقبل نشوب القتال يوم الجمل تقدم منها أحد أنصار علىّ وهو جارية بن قدامة السعدى فقال : « والله يا أم المؤمنين لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح » وخرج شاب من بنى سعد فلام طلحة والزبير على إخراجهما عائشة دون نسائهما بقوله :

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم ... هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها فى بيتها ... فهوت كشق البيد بالإيجاف[1]

وكانت السيدة عائشة قد أثارت الناس على عثمان وقالت : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، فلما أحدق به الثوار رحلت إلى مكة بقصد الحج وحتى لا تحضر حصاره فلما انضمت إلى طلحة والزبير كان موقفها صعباً على الفهم وقيلت فى ذلك أبيات تنسب لابن أم كلاب كما تنسب أيضاً لعمار بن ياسر ، تقول :

منك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله ... وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ... ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ ... يديل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب اثوابهـــا ... وما من وفى مثل من قد غدر[2]

وبعث عثمان بن حنيف بعمران بن حصين وأبى الأسود الدؤلى إلى أصحاب الجمل ليعلموا علمهم فأتيا عائشة وسمعا منها ثم أتيا طلحة والزبير وسمعا منهما ثم رجعا إلى عائشة فودعاها فودعت عمران وقالت يا أبا الأسود : إياك أن يقودك الهوى إلى النار ، كونوا قوامين لله شهداء بالقسط وسرحتهما فمضى أبو الأسود حتى دخل على عثمان بن حنيف فابتدره قائلا :

---

(١) الطبرى / حـ ٥ / ١٧٠

(٢) الطبرى / حـ ٥ / ص ١٧٢ ، مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٦

يا ابن حنيف قد أوتيت فانفرْ
وطاعن القوم وجالد واصبرْ
وأبرز لهم مستلئما وشمّرْ [١]

فقال ابن حنيف أى والحرمين لأفعلن، وأمر مناديه فنادى فى الناس : السلاح السلاح فاجتمعوا إليه فقال أبو الأسود :

أتينا الزبير فدانى الكلام وطلحة كالنجم أو أبعد
وأحسن قوليهما فادح يضيق به الخطب مستنكد
وقد أوعدانا بجهد الوعيد فأهون علينا بما أوعدوا
فقلنا : ركضتم ولم ترملوا وأصدرتم قبل أن توردوا
فإن تلقحوا الحرب بين الرجا ل فملقحها جده الأنكد
وإن علياً لهم مصحر ألا إنه الأسد الأسود
ألا إنه ثالث العابد ين بمكة والله لا يعبد
فرخوا الخناق ولا تعجلوا فإن غدا لكم موعد [٢]

والتقى جيش علىّ بأتباع الزبير وطلحة فى موقعة الجمل ردارت الدائرة على الناكثين وكان علىّ قد ناشدهم الله فى الدماء ، فأبوا إلا الحرب . وسألهم علام يقاتلونه فأبوا إلا الحرب فبعث رجلا من أصحابه يقال له مسلم، معه مصحف يدعو إلى الله فرموه بسهم ، فقتلوه ، فحمل إلى علىّ ، ورثته أمه بقولها :

يارب إن مسلما أتاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم وأمه قائمة تراهم [٣]

وكانت السيدة عائشة تنادى بأرفع صوتها : أيها الناس عليكم بالصبر فإنما يصبر الأحرار ، فأجابها أحد أنصار على :

---

(١) ديوان أبى الأسود / ص ٢٣٠ ، شرح نهج البلاغة / حـ ٢ / ص ٤٩٨
(٢) ديوان أبى الأسود / ص ٢٣٩ ، شرح نهج البلاغة / حـ ٢ ص ٤٨٩
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٧

يا أم .. يا أم عققت فاعلموا والأم تغذو ولدها وترحم
أما تراكم من شجاع يكلم وتجتلى هامته والمعصم

وقال آخر :

قلت لها وهى على مهوات إن لنا سواك أمهات

فى مسجد الرسول ثاويات [١]

ودعا علىّ الزبير لقتاله فخرج إليه واعتنقا فقال له على : ويحك يا زبير ما أخرجك : فقال : دم عثمان ، فذكره علىّ بقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — للزبير بأنه يقاتل علياً وهو له ظالم فاستغفر الزبير وأكد أنه لو تذكر ما خرج ولكنه الآن يستنكف أن يرجع وقد التقت حلقتا البطان ، وهو العار الذى لا يغسل ، ونصحه علىّ بأن يرجع بالعار خيراً من رجوعه بالعار والنار ، فرجع الزبير وهو يقول :

اخترت عارا على نار مؤججة ما إن لقوم لها خلق من الطين
نادى علىّ بأمر لست أجهله عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت : حسبك من عدل أباحسن فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى [٢]

ومضى الزبير فقتله عمرو بن جرموز فى وادى السباع ، وجاء عمرو علياً بسيف الزبير وخاتمه ورأسه فأوعده النار وعنف به فقال فى ذلك عمرو :

أتيت علياً برأس الزبير وقد كنت أرجو به الزلفه
فبشر بالنار قبل العيان وبئس بشارة ذى التحفه
لسيان عندى قتل الزبير وضرطة عنز بذى الجحفه [٣]

ويروى أن علياً عاتب طلحة . وناقشه فى خروجه حتى كاد يرجع هو الآخر ، وخشى مروان بن الحكم ذلك فرماه بسهم فقتله ، وقيل إنه سمع فى احتضاره يقول :

---

(١) مناقب آل طالب / حـ ٢ / ص ٣٤٥
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٧
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٨

ندامة هاندمت وضل حلمى ولهفى ثم لهف أبى وأمى
ندمت ندامة الكسعى لما طلبت رضا بنى حزم بزعمى[١]

وقتل محمد بن طلحة مع أبيه فى نفس اليوم وكان يدعى بالسجّاد لتعبده، ومرّ به علىّ بعد المعركة فقال هذا رجل قتله برّه بأبيه وطاعته وقال قاتله فى قتله :

وأشعث سجاد بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
على غير شىء غير أن ليس تابعا عليّاً ومن لا يتبع الحق يندم
يذكرنى حاميم والرمح شارع فهلا تلا حاميم قبل التقدم[٢]

وبعد الجمل تفرغ علىّ لمعاوية وسعت بينهما الرسل عبثاً وأخذ بنو أمية يحرضونه على الخروج طلبا لدم عثمان ، وكان من ذلك ما بعث به إليه الوليد بن عقبة إذ أرسل إليه بهذه الأبيات :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فإنك من أخى ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدم المعنى تهذر فى دمشق فما ترِيم
وليس أخو التراث بمن توانى ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيّاً لجرّد لا أكف ولا سئوم
ولا نكل عن الأوتار حتى يجىء بها ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا فهم صرعى كأنهم الهشيم[٣]

وفى نفس الوقت كان قيس بن عمرو المعروف بالنجاشى شاعر على يحرضه على المسير إلى أهل الشام بقوله :

فقل لهذا الإمام قد خبت الحر ب وتمت بذلك النعماء
وفرغنا من حرب من نكث العهد وبالشام حية صماء

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٩
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٠
(٣) الطبرى / حـ ٥ / ٨٢

تنفث السم ما لمن نهشته — فارمها قبل أن تعض — شفاء [١]

وأبى معاوية أن يبايع لعلىّ ، وأراد أن يستخرجه فكتب إليه بأبيات دعا كعب ابن جعيل إلى نظمها ، وهى أبيات تتعرض لعلىّ فى دهاء وخبث وتصفه بأنه لاعيب فيه إلا إيواؤه المحدثين والقاتلين، وهى تتسلل إلى هدفها على هذا النمط :

أرى الشام تكره ملك العراق — وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مبغضاً — يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم — ودناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا : علىّ إمام لنا — فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا به — فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد — وضرب وطعن يقر العيونا
وكل يسر بما عنده — يرى غث ما فى يديه سمينا
وما فى علىّ لمستعتب — مقال سوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب — ورفع القصاص عن القاتيلنا
إذا سيل عنه زوى وجهه — وعمّى الجواب عن السائلينا
فليس براض ولا ساخط — ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سره — ولابد من بعض ذا أن يكونا [٢]

وقد أمر علىّ شاعره النجاشى بأن يرد على أبيات كعب بن جعيل فكان رده هذه الأبيات :

دعن يا معاوى ما لن يكونا — فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىّ بأهل العراق — وأهل الحجاز فما تصنعونا
على كل جرداء خيفانة — وأشعث نهد تسر العيونا
عليها فوارس تحسبهم — كأسد العرين حمين العرينا
يرون الطعان خلال العجاج — وضرب القوانس فى النقع دينا

(١) الأخبار الطوال / ص ١٥٤
(٢) الأخبا الطوال / ص ١٦٢

همو هزموا الجمع جمع الزبير وطلحة والمعشر الناكثينا
وقالوا يميناً على حلفة لنهدى إلى الشام حرباً زبوناً
تشيب النواصى قبل المشيب وتاقى الحوامل فيها الجنينا
فإن يكره القوم ملك العراق فقدماً رضينا الذى تكرهونا
نقولوا لكعب أخى وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعه نظير ابن هند أما تستحونا[1]! ؟

وتعد هاتان المقطوعتان نموذجاً لاستخدام الشعر فى المناقضات السياسية ، فقد عنى النجاشى بنقض أفكار كعب ومعانيه فكرة فكرة ومعنى معنى .

وسار علىّ لملاقاة معاوية على رأس جيش كثيف بلغ عدده تسعين ألفاً كما جاء فى رسالة رجل من أشياعه بعث بها إلى معاوية يهدده فيها بقوله :

أثبت معاوى قد أتاك الحافل تسعون ألفاً كلهم مقاتل
عما قليل يضمحل الباطل[2]

وأخذ أنصار علىّ يتهددون معاوية على هذه الصورة ويتوعدونه ، وفى ذلك يقول الأشتر النخعى :

بقّيت وفرى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يوماً من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالى شزبا تعدو ببيض فى الكريهة شوس
حمىّ الحديد عليهم فكأنه ومضان برق أو شعاع شموس[3]

ونزل معاوية على الماء فى حين بات على وجيشه عطاشاً ، وقال عمرو لمعاوية إن علياً لا يموت عطشاً ومعه تسعون ألفاً من أهل العراق ، وسيوفهم على عواتقهم ، فدعهم يشربون ، ولكن معاوية أبى ودار علىّ فى جنده ليلا فسمع من يقول :

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفينا الرماح وفينا الجحف

---

(١) الأخبار الطوال / ص ١٦٢
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٧
(٣) شرح التبريزى للحماسة حـ ١ / ص ٣٩

وفينا علىّ له صولة إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا الأمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاه النجف[١]

وألقى أحد الجند فى خيمة الأشعث بن قيس ، وكان أحد أمراء جيش على ، برقعة فيها :

لئن لم يحل الأشعث اليوم كربة من الموت عنا للنفوس تعلت
ونشرب من ماء الفرات بسيفه فهبنا أناساً قبل كانوا فمرت[٢]

فلما قرأها حمى واستأذن علياً أن يهجم على الماء فى أربعة الآف ، فإما استباحوا الماء وإما هلكوا ، وأذن له علىّ فسار فى جنده يرتجز :

لأوردنّ خيلى الفراتا شعث النواصى أو يقال ماتا[٣]

وسرح علىّ الأشتر وراءه فى أربعة آلاف من الخيل وصاحب رايته وهو رجل من النخع يرتجز قائلا :

يا أشتر الخيرات يا خير النخع وصاحب النصر إذا غال الفزع
قد خرج القوم وعالوا بالفزع أن تسقنا اليوم فما هو بالبدع[٤]

وسار علىّ فى بقية الجند خلفهما ، ونجح الأشعث فى إزالة جند معاوية عن الماء ، وأغرق منهم خيلا ورجلا ، وأورد خيله الفرات فتغنى شاعر من شيعة علىّ بقوله :

كشف الأشعث عنا كربة الموت عيانا
بعد ما طار كلانا طيرة مست لهانا
فله المن علينا وبه دارت رحانا[٥]

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨
(٤، ٥) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨

وتوادع الجيشان شهر المحرم فلما أوشك على الانتهاء بعث علىّ يحتج على أهل الشام بكتاب الله ويدعوهم إليه فلم يجيبوه إلى شيء من ذلك إلا السيف ، وفى غرة صفر أخذ الفريقان يُبرزان كل يوم رجلا من كبارهم للمبارزة ، واستمر الحال هكذا ثمانية أيام حتى خرج علىّ بنفسه فى اليوم التاسع يطلب معاوية فاقتتلا ضحوة من النهار ، وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى أربعة آلاف يطلبون دم عثمان ، وابن عمر يتقدمهم مرتجزاً بقوله :

أنا عبيد الله ينميني عمر ... خير قريش من مضى ومن غبر
غير نبي الله والشيخ الأغر ... قد أبطأت فى نصر عثمان مضر
والربعيون فلا اسقطوا المطر[1]

فناداه علىّ : علام تقاتلنى ؟ والله لوكان أبوك حيًّا ما قاتلنى ، وقال له أتطلب بدم عثمان والله يطلبك بدم الهرمزان ؟ وأمر الأشتر بالخروج إليه فخرج يرتجز مفتخراً بعراقيته ويقول :

إنى أنا الأشتر معروف السير ... إنى أنا الأفعى العراقى الذكر
لست من الحىّ ربيع أو مضر ... لكننى من مذحج البيض الغرر[2]

فانصرف عنه عبيد الله وخشى مبارزته ، وتنادى الشعراء فى الفريقين ، يهددون ويتوعدون ، وكل يعتقد أن الحق فى جانبه من مثل قول أبى الطفيل عامر بن واثلة يصف أنصار على :

كهول وشبان وسادات معشر ... على الخيل فرسان قليل صدودها
شعارهم سيما النبي ورايه ... بها انتقم الرحمن ممن يكيدها

ورد عليه خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية :

ثمانون ألفاً دين عثمان دينهم ... كتائب فيها جبرئيل يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمت ... فنى النار سقياه هناك صديدها[3]

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٦٢
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٦٣
(٣) الأغانى حـ ١٣ ص ١٦٠

وتقدم عمار بن ياسر وهو يقول : إنى لأرى وجوهاً لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون ، والله لو هزمونا حتى يبلغونا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل ، وقاتل عمار قليلا ثم عاد إلى موضعه ، واندفع من ثم يصيح هل من رائح إلى الجنة تحت العوالى ؟ والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله كما قاتلناكم على تنزيله ، وارتجز وهو يتقدم قائلا :

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله [١]

وتوسط القوم واشتبكت عليه الأسنة فقتله أبو حواء السكسكى وأبو الهادية العاملى ، واختلفا فى سلبه فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فقال لهما : اخرجا عنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول ، وقد بغت قريش بعمار : « ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » ، وقد رثاه الحجاج بن عربة الأنصارى بقوله :

يا للرجال لعين دمعها جارى قد هاج حزنى أبو اليقظان عمارُ
أهوى إليه أبو حوا فوارسه يدعو السكون وللجيشين إعصار
فاختل صدر أبى اليقظان معترضاً للرمح قد وجبت فينا له النار
الله عن جمعهم لاشك كان عفا أتت بذلك آيات وآثار
من ينزع الله غلا من صدورهم على الأسرة لم تمسسهم النار
قال النبى له تقتلك شرذمة سيطت لحومهم بالبغى فجار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهم أصحاب تلك وفيها النار والعار [٢]

فعبد الله بن عمرو بن العاص والحجاج بن عربة يشيران فيما تقدم إلى ما روى من أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية .

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٦٣
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٦٤

ولما صرع عمار تقدم جيش علىّ وجمهوره من الأنصار وربيعة فاشتد القتال والتحم الفرسان وكان أكثرهم إخلاصاً لعلىّ الربعيون فدعا لهم ، وترحم على قتلاهم وأشاد ببلائهم وبلاء زعيمهم الحصين بن المنذر بن الحارث الذهلى فى قوله :

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حصين تقدما
يقدمها فى الموت حتى يزيرها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما
أذقنا ابن حرب طعننا وضرابنا ... بأسيافنا حتى تولى وأحجما
جزى الله قوما قاتلوا فى لقائه ... لدى الموت قدما ما أعز وأقدما
وأطيب أخباراً وأكرم شيمة ... إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعنى أنهم أهل نجدة ... وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما[1]

وقد ظل القتال حتى جنهم الليل ليلة الهرير وأصبح القوم على القتال ، وكسفت الشمس وارتفع القتام وتقطعت الألوية وغدا الأشتر يرتجز وهو يقول :

نحن قتلنا حوشبا ... لما غدا قد أعلما
وذا الكلاع قبله ... ومعبداً إذ قدما
إن يقتلوا منا أبا الـ ... ـيقظان شيخاً مسلما
فقد قتلنا منكم ... سبعين رأسا مجرما
أضحوا بصفين وقد ... لاقوا نكالا مؤلما[2]

وكان الأشتر بطل صفين دون منازع وفى بلائه يقول النجاشى :

رأيت اللواء كظل العقاب ... يقحمه الشامى الأخزر
دعونا له الكبش كبش العرا ... ق وقد خالط العسكرَ العسكر
فرد اللواء على عقبه ... وفاز بحظوتها الأشتر[3]

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٧٠
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٧٠
(٣) الأخبار الطوال ص ١٩٨

وكان الأشتر على ميمنة علىّ وقد أشرف على الفتح حتى نادى أهل الشام الله الله فى الحرمات وانتهوا إلى خديعة رفع المصاحف على أسنة الرماح فرفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف وفى ذلك يقول النجاشى :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خير قران
ونادوا عليًّا يا ابن عم محمد ... أما تتقى أن يهلك الثقلان[1]

وانخدع أهل العراق فتركوا القتال على الرغم من علىّ وانتهى الأمر بكتابة صحيفة التحكيم، وفيها فوض الأمر إلى رجلين يحكمان بكتاب الله ودار الأشعث بن قيس بالصحيفة فى جند على يقرؤها هنا وهناك حتى استثار عروة بن أدية الذى رفع سيفه وأهوى به على الأشعث فوقعت الضربة بعجز فرسه وكادت الفتنة أن تقع فى جيش علىّ لولا أن تداركها بنو تميم فاعتذروا للأشعث ، وخاطب أحد بنى تميم عروة محذراً من مغبة فعلته بهذه الأبيات :

عرو يا عرو كل فتنة قوم ... سلفت إنما تكون فتيه
ثم تنمى ويعظم الخطب فيها ... فاحذرن غب ما أتيت عريه
أعلى الأشعث المعصب بالتا ... ج حملت السلاح يا ابن أديه
إنها فتنة كفتنة ذى العجل ... أيا عروة العصا والعصيه
فانظر اليوم ما يقول علىّ ... واتّبعه فذاك خير البريه [2]

واختار أهل الشام عمرو بن العاص بينما أكره علىّ على اختيار أبى موسى الأشعرى، وكان رجلا لا يطاول عمراً فى دهائه كما لم يكن رضا من على لأنه خذل الناس عنه فى البصرة وفر حتى أمنه ، وكان اختياره لا يلقى ترحيباً من أشياع علىّ المخلصين وفى ذلك يقول أيمن بن خريم وكان قد اعتزل لما تطورت الأمور :

لو كان للقوم رأى يهتدون به ... عند الخطوب رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن ... لم يدر ماضرب أخماس لأسداس [3]

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٧١
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٧٤
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ٢٧٩ ، الأخبار الطوال ص ١٩٦

وأيمن فى هذا إنما يصور ميل علىّ وشيعته المخلصين فى اختيار ابن عباس أو الأشتر وكان علىّ قد لقى معارضة فى ذلك من الأشعث وغيره ، ولم ير مناصاً من الخضوع لرأيهم .

وكان ما كان من اختلاف الحكمين ، وأحدث شعار الخوارج الذى رفعوه بألا حكم إلا لله رد فعل عنيفا فى جند علىّ كما يبدو فى قول أشياعه الذين شهدوا التحكيم إذ يقول أحدهم :

رضينا بحكم الله لاحكم غيره وبالله ربًّا والنبى وبالذكر
وبالأصلع الهادى على إمامنا رضينا بذاك الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيًّا وميتاً فإنه إمام الهدى فى موقف النهى والأمر[1]

وقد لقى أبو موسى لوما كثيراً من شعراء علىّ ، كذلك الذى لقيه من الفضل بن العباس الهاشمى إذ قال فى أبيات منها قوله :

أبا موسى بليت وكنت شيخاً قريب العفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس فيا لله من شيخ يمانى
فأمسيت العشية ذا اعتذار ضعيف الركن منكوب العنان
تعض الكف عن ندم وماذا يرد عليك عضك للبنان[2]

وانتهت الحرب مع أهل الشام على هذه الصورة التى فقد فيها المنتصر ثمرة انتصاره بما أوقعته الخديعة فى جنده من الانقسام والفرقة ، ورأى علىّ أن يستنفر المحكمة الذين خرجوا عليه لمّا رضى التحكيم لقتال أهل الشام فأبوا ، واستحث أنصاره الذين ظلوا معه على الخلاص من هؤلاء قبل الخروج إلى أهل الشام ، فالتقى بهم علىّ فى النهروان بعد مناظرات ومفاوضات لم تثمر وأوقع بهم وقعة شديدة .

وتخلف عن وقعة النهروان شعر كثير ، كثرته من الرجز الذى كان الفرسان

---

(١) مروج الذهب / جـ ٢ / ص٢٧٩
(٢) مروج الذهب /جـ ٢ / ص ٢٧٩

ينشدونه فى البروز من مثل قول أحد المحكمة وقد خرج يبحث عن علىّ ليقتله :

أضربهم ولو أرى عليًّا ألبسته أبيض مشرفيا

فأجابه علىّ بقوله :

يا أيهذا المبتغى عليّا إنى أراك جاهلا شقيّا
قد كنت عن كفاحه غنيّا هلم فابرز ها هنا إليّا

وحمل عليه فقتله [١] .

وكذلك خرج غيره يقول قولا قريبا من ذلك :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ألبسته بصارمى ثوب غبن

فلقيه علىّ بسيفه ، وهو يقول :

يا أيهذا المبتغى أبا حسن إليك فانظر أينا يلقى الغبن [٢]

ولكن جنده لم يوفوا له بوعدهم فتثاقلوا عن نصرته ، وقد أزمع بعد الخلاص من المحكّمة أن يسير إلى أهل الشام وأخذوا يعتذرون بكلال سيوفهم ونفاد نبالهم ثم تسللوا فلحقوا ببيوتهم ، ولم يبق معه إلا نفر يسير ، وانتهز الفرصة الحارث ابن راشد من بنى ناجية ، فمضى فى ثلاثمائة من ولد سامة بن لؤى وارتدوا جميعاً إلى النصرانية ، ونجح معقل بن قيس الرياحى الذى سرحه علىّ فى إثرهم فى هزيمتهم بسيف البحر وسبى عيالهم وذراريهم حين استنقذهم منه مصقلة بن هبيرة الشيبانى عامل علىّ على الأهواز فاشتراهم بثلاثمائة ألف وأعتقهم وأدى من المال مائتى ألف والتوى بالمائة الباقية وهرب إلى معاوية وقال أثناء ذلك يندم على ما فعل :

تركت نساء الحى بكر بن وائل وأعتقت سبياً من لؤى بن غالب
وفارقت خير الناس بعد محمد لمال قليل لا محالة ذاهب [٣]

وقضى علىّ ما بقى من أيامه غير مطاع فى جنده ، بينما كان معاوية قد استحوذ

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٤
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٤
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٦

على مصر ، وأخذ يرسل السرايا تغير على أطراف العراق حتى نجح عبد الرحمن ابن ملجم المرادى فى طعنه ثأراً لأهل خطيبته قطام التى اشترطت عليه قتله فى مهرها ، وفى ذلك يقول ابن أبى مياس المرادى :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علىّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من علىّ وإن غلا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)

وقد رثى الشعراء من شيعة آل البيت علياً رثاء حاراً عبروا فيه عن سخطهم على معاوية وأهل الشام واتهموهم بالتحريض على قتله كما ذهب إلى هذا أبو الأسود الدؤلى فى قوله :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرت عيون الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الخلق طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثانى والمئينا
إذا استقبلت وجه أبى حسين ... رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرهم حسباً ودينا (٢)

وتنسب تلك الأبيات إلى أم الهيثم ابنة أبى الأسود وفيها زيادات كثيرة يبدو أنها أضيفت فيما بعد ويرويها أبو الفرج على هذا النحو :

ألا ياعين ويحك فاسعدينا ... ألا تبكى أمير المؤمنينا
رزئنا خير من ركب المطايا ... وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثانى والمئينا
وكنا قبل مقتله بخير ... نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الدين لا يرتاب فيه ... ويقضى بالفرائض مستبينا

---

(١) الطبرى / حـ ٦ / ص ٨٧ ، مروج الذهب / حـ ٢ ص ٢٩٠
(٢) ديوان أبى الأسود / ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، الأغانى حـ ١١ ص ١٧ ، الطبرى حـ ٤ ص ١١٦

ويدعو للجماعة من عصاه ... ويهنك قطع أيدى السارقينا
وليس بكاتم علماً لديه ... ولم يخلق من المتجبرينا
لعمر أبى لقد أصحاب مصر ... على طول الصحابة أرجعونا
وغرونا بأنهم عكوف ... وليس كذاك فعل العاكفينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طرًّا أجمعينا
ومن بعد النبى فخير نفس ... أبو حسن وخير الصالحينا
كأن الناس إذ فقدوا عليًّا ... نعام جال فى بلد سنينا
ولو أنا سئلنا المال فيه ... بذلنا المال فيه والبنينا
أشاب ذؤابتى وأطال حزنى ... أمامة حين فارقت القرينا
تطوف بها لحاجتها إليه ... فلما استيأست رفعت رنينا
وعبرة أم كلثوم إليها ... تجاوبها وقد رأت اليقينا
فلا تشمت معاوية بن صخر ... فإن بقية الخلفاء فينا
وأجمعنا الإمارة عن تراض ... إلى ابن نبينا وإلى أخينا
ولا نعطى زمام الأمر فينا ... سواه الدهر آخر ما بقينا
وإن سراتنا وذوى حجانا ... تواصوا أن نجيب إذا دعينا
بكل مهند عضب وجرد ... عليهن الكماة مسومينا (١)

ويظهر فى هذه الروايات إصرار شيعة علىّ على أن يولوا ابنه الأمر من بعده حتى يكون فيهم بقية الخلفاء إلى آخر الدهر. ولكن معاوية نجح فى أن يحمل الحسن على التنازل له فيخلو له الجو ولكن تنازل الحسن يكون له رنة حزن فى نفوس الشيعة وقد لامه عليه أخوه الحسين وراجعه فى أمره باكياً وكذلك راجعه فى هذا الأمر وفد من شيعة الكوفة بزعامة سليمان بن صرد الخزاعى وحجر بن عدى الكندى والمسيب بن نجية الفزارى وإن كنا لا نجد لهذا التنازل وذلك الأسى صدى فى الشعر الشيعى ، وإن كان صدى موت الحسن فى شعر الشيعة واضحاً، وربما كان السبب فى ذلك أن الشيعة أخذوا ينتظرون ما أملهم به الحسن من

(١) مقاتل الطالبيين / ص ٤٣ ؛ ٤٤

موت معاوية ورد الأمر شورى بين المسلمين كما تقضى شروط الصلح ، فلما مات الحسن قبل معاوية على هذه الصورة الغامضة برز ذلك كله وكان له صدى فى شعرهم كما فى أبيات المفضل المطلبى :

أصبح اليوم ابن هند آمناً ظاهر النخوة إذ مات الحسن
رحمة الله عليه إنما طالما أشجى ابن هند وأرن
استراح القوم منه بعده إذ ثوى رهناً لأحداث الزمن
فارتع اليوم ابن هند آمناً أينما يقمص بالعير السمن [1]

وكذلك بكاه النجاشى بكاء المعول الثاكل فى قوله :

جعدة بكيه ولا تسأمى بعد بكاء المعول الثاكل
لم يسبل الستر على مثله فى الأرض من حاف ومن ناعل
كان إذا شبت له ناره يرفعها بالسند الغاتل
كيما يراها بائس مرمل وفرد قوم ليس بالآهل
يغلى بنىء اللحم حتى إذا أنضجه لم يغل من آكل
أعنى الذى أسلمنا هلكه للزمن المستخرج الماحل [2]

ورثى الحسن جملة من شعراء الشيعة رثاء حاراً من مثل قول سليمان بن قتة :

يا كذب الله من نعى حسنا ليس لتكذيب نعيه ثمن
كنت خليلى وكنت خالصتى لكل حى من أهله سكن
أجول فى الدار لا أراك وفى الـ ـدار أناسى جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت أنهم أضحوا وبينى وبينهم عرن [3]

وقد تردد أن الحسن قد مات مسموماً بيد زوجه ابنة جعدة الأشعث بن قيس بتدبير من معاوية . وفى أبيات لمحمد بن الحنفية يرثى فيها أخاه الحسن نراه

---

(١) مناقب آل طالب حـ ٣ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٣
(٣) مقاتل الطالبيين ص ٧٧ شرح نهج البلاغة حـ ٤ ص ١٨ ، شرح شافية أبى فراس ص ١٣٢

يصرح بموت أخيه مسموماً فيقول :

أأدهن رأسي أم تطيب مجالسي ... وخدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه ... وقد ضمن الأحشاء منك لهيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة ... وما اخضرفى دوح الحجازقضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطه ... ألا كل من تحت التراب غريب (١)

وكان معاوية قد ضمن للحسن بعد الصلح بينهما ألا يساء إليه هو ولا إلى أحد من أنصاره ، ولكن هذا لم يمنع معاوية من أن يوحى إلى عماله بشتم علىّ على المنابر مما أثار طائفة من خلصاء الشيعة فشغب قوم منهم على المغيرة بن شعبة فى مسجد الكوفة وكان زعيمهم فى هذا الشغب حجر بن عدى الذى سكت عنه المغيرة ولم يسكت عنه زياد بن أبيه فأوقع به وبصحبه وأرسلهم إلى معاوية فى دمشق ومعهم وثيقة زائفة تتهمهم بالعمل على نقض حكمه بالقوة ، وكان أن صدق على اتهامهم ولكنه أخلى سبيل ستة منهم تبرأوا من علىّ وقتل الستة الآخرين .

وكان لهذا الحادث أثر كبير فى إثارة السخط والتذمر بين المسلمين عامة والشيعة بخاصة ، وقد رثى كثير من الشيعة حجراً رثاء أظهروا فيه الحقد على معاوية وعامله زياد على هذه الصورة التى تبدو فى أبيات وصفت فيها ابنته مسيره إلى دمشق ليلقى مصيره ، تقول :

ترفّع أيها القمر المنير ... لعلك أن ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كذا زعم الأمير
ويصلبه على بابى دمشق ... وتأكل من محاسنه النسور
تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد لها محولا ... كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بنى عدى ... تلقتك السلامة والسرور

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٤

أخاف عليك ما أردى عليًّا ... وشيخاً فى دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقًّا ... له من شر أمته وزير
ألا ياليت حجراً مات موتا ... ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل عميد قوم ... إلى هلك من الدنيا يصير[1]

وكذلك رثاه عبد الله بن خليفة الطائى ، وكان من أنصاره ، وقد طلبه زياد فلم يظفر به ، يقول عبد الله :

فدع عنك تذكار الشباب وفقده ... وأسآره إذ بان منك فأقصرا
وبك على الخلان لم يتخرموا ... ولم يجدوا عن منهل الموت مصدرا
وما كنت أهوى بعدهم متعللا ... بشىء من الدنيا ولا أن أعمرا
أقول ولا — والله — أنسى اذكارهم ... سجيس الليالى أو أموت فأقبرا
على أهل عذراء السلام مضاعفاً ... من الله وليسق الغمام الكنهورا
ولاقى بها حجر من الله رحمة ... فقد كان أرضى الله حجر وأعذرا
ولا زال تهطال ملث وديمة ... على قبر حجر أو ينادى فيحشرا
فيا حجر من للخيل تدمى نحورها ... وللملك المغزى إذا ما تغشمرا
ومن صادع بالحق بعدك ناطق ... بتقوى ومن أن قيل بالجور غيرا
فنعم أخو الإسلام كنت وإننى ... لأطمع أن تؤتى الخلود وتحبرا
وقد كنت تعطى السيف فى الحرب حقه ... وتعرف معروفاً وتنكر منكرا[2]

ولقى الذين تخلوا عن نصرة عدى من أهل الكوفة لوماً عنيفاً على إسلامهم له وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى قومه من كندة كمحمد بن قيس ابن الأشعث الذى لامه عبيدة الكندى بقوله :

أسلمت عمك لم تقاتل دونه ... فرقاً ولو لا أنت كان منيعا[3]

---

(١) الطبرى حـ ٦ ص ١٥٧ ، الأغانى حـ ١٦ ص ١٠ ، مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٨
(٢) الطبرى حـ ٦ ص ١٥٩
(٣) الطبرى حـ ٦ ص ١٦٠

وانتهز معاوية وفاة الحسن ليدعو لبيعة يزيد لولاية عهده متحللا من وعده الذى قطعه على نفسه بإعادة الأمر إلى المسلمين ليختاروا من يرضونه .

وقد مهد معاوية لهذا الأمر باستلحاق زياد بن أبيه إلى نسب أبى سفيان على ما فى ذلك من مخالفة دينية سافرة ، ولقى هذا الاستلحاق سخرية من الشيعة وتندرًا كما فى قول يزيد بن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زانى
فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان (١)

وكذلك تندر خالد النجارى بهذا الاستلحاق متعجبًا من اجتماع ثلاثة رجال مختلفى النسب فى الأخوة فى قوله :

إن زيادًا ونافعًا وأبا بكرة عندى من أعجب العجب
إن رجالا ثلاثة خلقوا من رحم أنثى مخالفى النسب
ذا قرشى فيما يقول وذا مولى وذا ابن عمه عربى (٢)

وانطلق شعراء بنى أمية يخوضون معركة ولاية العهد ، ويروجون لها ، وكان الفرس المجلى فى تلك المعركة مسكين الدرامى الذى نعى فى قصيدة له على عبدالله بن عامر ، ومروان بن الحكم وسعيد بن العاصى معارضتهم لبيعته وتلكؤهم فيها (٣)

وقد حمل عبد الله بن همام السلولى الشيعى على هذه البيعة حملة شعواء تجاوزت السخرية والتهكم إلى إظهار الحقد والغيظ على بنى أمية فى قوله :

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا ماماتكسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقينا
فياليتنا لو انّ لنا ألوفا ولكن لا نعود كما عنينا
إذًا لضربتموا حتى تعودوا بمكة تلعقون بها السخينا

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣١٢
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣١٢
(٣) الأغانى حـ ١١٨ ص ٧١

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بنى أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا[١]

وكان لهذه الأحداث المتتابعة من موت الحسن هذه الميتة الغامضة ، وقتل حجر ابن عدى وأصحابه واستلحاق زياد والبيعة ليزيد صدى مؤلم بين الناس . ومات معاوية وقد كسبت دعوة الشيعة نجاحًا بعيدًا ، ثم كان عنف يزيد بأبناء كبار الصحابة وإرغامهم على البيعة له مثيرًا لهم وداعيًا إلى العداء الصريح الذى حدا بعبدالله بن الزبير إلى أن يعوذ بالحرم فى مكة ، وبالحسين بن علىّ إلى أن يستجيب لدعوة أهل الكوفة الذين ألحوا عليه فى القدوم إليهم لمبايعته .

وقدّم الحسين أمامه إلى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ولكن عبيد الله بن زياد أخذ الشيعة بالشدة وطلب مسلما وجد فى طلبه وأرغمه على الخروج قبل الأوان وبعد أن بعث يستقدم الحسين واستجار مسلم بهانئ بن عروة المرادى فاستقدمه ابن زياد وحبسه . ونجح عبيد الله فى أن يخذل الناس من حول مسلم مستعينًا فى ذلك بأشراف الكوفة كمحمد بن قيس بن الأشعث الذى نعى عليه عبيدة الكندى تقاعسه عن نصرة مسلم كما تقاعس من قبل عن نصرة حجر بن عدى فى قوله :

وقتلت وافد آل بيت محمد وسلبت أسيافًا له ودروعا[٢]

ولكن مسلما لم يستسلم ، وقاوم إلى النهاية وحيدًا ، وقاتل قتال الأبطال ، ورد شرطة ابن زياد وهو يرتجز بقوله :

أقسمت لا أقتل إلا حرًا وإن رأيت الموت شيئًا نكرا
أخاف أن أكذب أو أغرا أو يخلط البارد سخنًا مرا
ردّ شعاع الشمس فاستقرا كل امرئ يوما ملاق شرا[٣]

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٢٩
(٢) الطبرى حـ ٦ ص ١٦٠
(٣) الطبرى حـ ٦ ص ٢١٠ ، مقاتل الطالبيين ص ١٠٤ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١١

وظل يقاتل حتى أعطى له الأمان ، وجرد من سلاحه ، وسيق إلى ابن زياد حيث أمر بقتله فذبح ثم ألقى به من فوق القصر وصلب ، وقتل هانئ بن عروة المرادى وصلب معه فى السوق ، وفى ذلك يقول سليم بن سلام الحنفي :

إن كنت لا تدرين ما الموت فانظرى ... إلى هانئ فى السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه ... وآخر يهوى من طمار قتيل
ترى جسدا قد غير الموت لونه ... ونضح دم قد سال كل مسيل
فتى هو أحيا من فتاة حيية ... وأقطع من ذى شفرتين صقيل[1]

وكان الحسين قد أتاه كتاب مسلم قبل مقتله بشهر فصادف خروج مسلم انتقال الحسين من مكة على الرغم من معارضة آل بيته الذين نصحوا بألا يغتر بأهل العراق الذين قتلوا أباه وخذلوا أخاه ، وكان بين الناصحين عبد الله بن العباس الذى قدر ارتياح عبد الله بن الزبير لهذا الخروج ومدى إفادته منه فقال فى هذا الصدد :

يا لك من قبرة بمعمر ... خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى ... هذا الحسين خارجا فاستبشرى[2]

وفى سهل كربلاء لقى الحسين بن على مصرعه بعد أن قاتل فى اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا منهم ثمانية عشر من أبناء هاشم وبعض من انضم إليه من جيش أعدائه ، وقد صور الشعر مصارعهم تصويرا تاما ، وكان أولهم على بن الحسين الذى اقتحم وهو يرتجز :

أنا علىّ بن الحسين بن علىّ ... نحن وبيت الله أولى بالنبى
من شبث وشمّر الدنى ... أضربكم بالسيف حتى يلتوى

---

(١) طبقات ابن سعد حـ ٤ ص ٢٩ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١٦ ، الإرشاد ص ١٩٧

(٢) الطبرى حـ ٦ ص ٢١٧ ، مقاتل الطالبيين ص ١١٠ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١٧

ضرب غلام هاشمى علوى ولا أزال اليوم أحمى عن أبى
والله لا يحكم فينا ابن الدعى[١]

وكان الحسين نفسه يرتجز فى قتاله ، فلما شعر بحرج موقفه أنشد وهو يحتسب نفسه :

يا دهر أف لك من خليل كم لك فى الإشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر فى ذاك إلى الجليل وكل حى سالك السبيل[٢]

وكان الحسين آخر من قتل ، فسلب وترك فى العراء متجردًا كما سبى أعداؤه النساء سبى الرقيق .

وللشيعة فى رثاء الحسين أشعار جمة ملتهبة بنيران الكمد والحزن والفجيعة والندم على خذلانه وخير مثال لذلك قول عبيد الله بن الحر وقد شهد مصرعه ومصرع صحبه حتى إننا نعده أول من وضع تقاليد البكائين للحسين ، يقول :

يقول أمير غادر حق غادر ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
فياندمى ألا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدد نادمه
وإنى لأنى لم أكن من حماته لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تأزروا على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على أجداثهم ومجالهم فكاد الحشى ينفض والعين ساجمه
لعمرى لقد كانوا مصاليت فى الوغى سراعًا إلى الهيجا حماة خضارمه
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
فإن يقتلوا فكل نفس تقية على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراءون أفضل منهم لدى الموت سادات وزهرًا قماقمه

---

(١) الطبرى حـ ٦ ص ٢٥٦ ، مقاتل الطالبيين ص ١١٣ ، الإرشاد ص ٢٢٠ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ٣٣

(٢) الطبرى حـ ٦ ص ٢٤٠

أتقتلهم ظلما وترجو ودادنا فدع خطة ليست لنا بملائمه
لعمرى لقد راغمتمونا بقتلهم فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مرارًا أن أسير بجحفل إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفوا وإلا زرتكم فى كتائب أشد عليكم من زحوف الديالمه[١]

ولما أدخل رأس الحسين إلى يزيد أقبل عليه بعض من شركوا فى دمه يقول :

أوقرْ ركابى فضة أو ذهبا فقد قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا[٢]

وأذكى مقتل الحسين نار التشيع ووحد صفوف الشيعة وانتقل بمبادئهم من طور إلى طور . من طور النظر إلى طور العمل بعد أن امتزجت دماؤهم بمبادئهم وتغلغلت فى قلوبهم عقائدهم وأصبح الموقف مشحوناً وعلى وشك الانفجار . فهؤلاء آل النبى يقتلون بالجملة حتى ليتبجح من ولغ فى دمهم فيطلب الفضة والذهب أجراً ؛ ومن قبل الحسين لقى الحسن مصرعه بالسم ومن قتلهما هو الذى أودى بأبيهما من قبل غيلة فما أشد حزن الشيعة وما أجدرهم بأن يتأسوا بهم طلباً للسلوى والعزاء . يقول أحدهم :

تأس فكم لك من سلوة تفرج عنك غليل الحزن
بموت النبى وقتل الوصى وقتل الحسين وسم الحسن[٣]

وقد وقع الشيعة عقب مقتل الحسين فريسة لتأنيب الضمير ، وفتح الباب إلى التفكير فى التكفير عنه ، وقد نتج عن هذا التفكير قيام حركة التوابين التى قادها سليمان بن صرد والتى ظلت سرية حتى وفاة يزيد فانطلقت من عقالها تندد بقتلة الحسين وتعلن العزم على الثأر له ، ولكن التوابين يلقون الهزيمة أمام جيش الشام ولا ينجو منهم إلا القليل ، ويتولى المختار الثقفى قيادتهم بعد

---

(١) الطبرى حـ ٦ ص ٢٧٠
(٢) العقد الفريد حـ ٤ ص ٣٨١ ، مقاتل الطالبيين ص ١١٩
(٣) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٣

سليمان فيُخرج والى ابن الزبير عن الكوفة ويجعل دعوة الشيعة فيها إلى ابن الحنفية صراحة وسرعان ما تتكون حول دعوته نظرية الشيعة الكيسانية المتأثرة بأفكار السبئية الغالية .

واحتضنت هذه الحركة الموالى كما احتضنت معهم أفكارًا متطرفة فى الحلول والتناسخ والرجعة والغيبة والعلم بالباطن والغيب وزاد المختار على ذلك شعوذات خاصة كالقول بالبداء واتخاذ الكرسى والحمائم البيض التى زعم أنها ملائكة تقاتل فى صفوفه .

ومن مخاريق المختار ما يرويه الطفيل بن جعدة فى شأن الكرسى الذى اتخذه المختار أنه خرج ذات يوم فإذا جار له زيات عنده كرسى ركبه الوسخ « فقلت فى نفسى لو قلت للمختار فى هذا شيئا ، فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو أبيض فقلت للمختار : إنى كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لى أن أذكره لك : إن أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى أن فيه أثرًا من على قال سبحان الله أخرته إلى هذا الوقت أبعث به فأحضرته عنده وقدغشى فأمر لى باثنى عشر ألفًا ، ثم دعا : الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس فقال المختار : إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله ، وإن كان فى بنى إسرائيل التابوت فإن هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسى على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك فتنة » (١)

وقد قال أعشى همدان فى ذلك :

شهدت عليكم أنكم سبئية ... وأنى بكم ياشرطة الشرك عارف
وأقسم ماكرسيكم بسكينة ... وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سمت ... حمام حواليه وفيكم زخارف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت ... شبام حواليه ونهد وخارف (٢)

---

(١) بن الأثير حـ ٤ ص ١٠٨

(٢) ابن الأثير حـ ٤ ص ١٠٨ ، الحيوان) جـ ٢ ص ٢٧١ ، الطبرى حـ ٦ ص ١٤١

وكان إذا حارب يضع الكرسى فى براح الصف ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصر وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت فى بنى إسرائيل وفيه السكينة واليقين والملائكة [١] وفى السخرية من هذا الكرسى أيضا قال المتوكل الليثى شاعر بنى أمية :

أبلغ أبا إسحاق إن جئته أنى بكرسيكم كافر
تنزو شبام حول أعواده وتحمل الوحى له شاكر
محمرة أعينهم حوله كأنهن الحمص الحادر [٢]

وقد أقبل المختار بعد معركة جبانة السبيع إلى القصر ومعه سراقة بن مرداس أسيراً ، فقال آسره للمختار : إنى أسرت هذا ، فقال له سراقة : كذب ، ما هو الذى أسرنى ، إنما أسرنى غلام أسود على برذون أبلق ، عليه ثياب خضر ما أراه فى عسكرك الآن ، وسلمنى إليه فقال المختار أما إن الرجل قد عاين الملائكة فخلوا سبيله ، ونادى سراقة المختار :

أمنن علىّ اليوم يا خير معد وخير من حل بتجر والجند
وخير من لبى وحنا وسجد

ثم استعطفه بقوله :

نصرت على عدوك كل يوم بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصر محمد فى يوم بدر ويوم الشعب إذ لاقى حنينا
فأسجح إن ملكت فلو ملكنا لجرنا فى الحكومة واعتدينا
تقبل توبة منى فإنى سأشكر إذ جعلت النقد دينا

فلما انتهى إلى المختار قال : أصلح الله الأمير أحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت الملائكة تقاتل معك على الخيول البلق من السماء والأرض فقال له المختار : اصعد المنبر فأعلم الناس ، فصعد فأخبرهم بذلك ثم نزل فخلا به

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٢٣٩
(٢) الطبرى حـ ٦ ص ١٤١

فقال له المختار: إنى قد علمت أنك لم ترشيئاً وإنما أردت ماقدعرفت أن لا أقتلك فاذهب عنى حيث شئت لا تفسد علىّ أصحابى فخرج سراقة إلى البصرة فنزل عند مصعب وقال :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى ... رأيت البلق دهما مصمتات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً ... علىّ قتالكم حتى الممات
أرى عينىّ ما لم تبصراه ... كلانا عالم بالترهات
إذا قالوا أقول لهم كذبتم ... وإن خرجوا لبست لهم أداتى (١)

وقد كان بعض الشعراء الأمويين يمدحونه خوفا من بطشه وكأنهم من شيعته على شاكلة قول عبد الله بن همام السلولى الذى قال فيه ، وفى إمامه :

دعا يا لثارات الحسين فأقبلت ... كتائب من همدان بعد هزيع
وآب الهدى حقًّا إلى مستقره ... بخير إياب آية ورجوع
إلى الهاشمى المهتدى المهتدى به ... فنحن له من سامع ومطيع (٢)

وكان المختار يصطنع لوناً من السجع يوهم به أنه يوحى إليه من مثل قوله : « أما ورب المرسلات عرفا لتقبلن بعد صف صفا ، وبعد ألف قاسطين ألفا » ، ومثل قوله وهو فى السجن : « أما ورب البحار ، والنخل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار بكل لدن خطار ، ومهند بتار ، بجموع الأنصار ، ليس بمثل أغمار ، ولا بغرر أسرار ؛ حتى إذا أقمت عمود الدين ، وزايلت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت ثأر النبيين ، لم يكبر علىّ زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى »(٣) .

---

(١) الطبرى حـ ٧ ص ١٢٣ ، طبقات الشعراء ص ٣٧٦ ، ابن الأثير حـ ٤ / ص ١٠٠

(٢) الطبرى حـ ٧ ص ١٢٥

(٣) ابن الأثير حـ ٤ / ص ٧٣ ، ١٠٨ .

ويروى أن ابن الحنفية قد تبرأ من المختارحين نمى إليه أنه لبس على الناس أنه من دعاته ورجاله وتبرأ من الضلالات التى ابتدعها ومن التأويلات والمخاريق الموهة (١) .

ولكن المختار ينتهز فرصة اضطهاد ابن الزبير لمحمد بن الحنفية وحبسه مع رهط من بنى هاشم وقد قدموا بقصد الحج وتوعدهم بالقتل والإحراق إن لم يبايعوا ، وضرب لهم أجلا . فأشار عليه بعض أتباعه بأن يستنجد بالمختار الذى كان يعرض خدماته على ابن الحنفية آنذاك ليقوى به مركزه ، ولم يكن ابن الحنفية يستجيب له ولكنه فعل أمام اضطهاد ابن الزبير . وانتهز المختار الفرصة فأثار عاطفة أهل الكوفة ، حتى بكوا وطلبوا أن يسيروا لنصرة المهدى ابن المهدى وبعث المختار بجيش يقوده أبو عبد الله الجدلى ، ودخل هذا الجيش المسجد الحرام ، وجنده ينادى بيالثارات الحسين وكسروا باب السجن وقد أحيط به الحطب المشتعل ، وأطلقوا ابن الحنفية وأنصاره واستأذنوه فى قتال ابن الزبير فلم يستحل القتال فى الحرم ، واضطر ابن الزبير إلى أن يغض الطرف ويخفض صوته ، ووزع ابن الحنفية فى جند المختار بعض المال وعادوا أدراجهم إلى الكوفة .

وفى استنقاذ ابن الحنفية من سجن الزبير يقول شاعر الكيسانية كثير بن عبد الرحمن .

فمن يرهذا الشيخ بالخيف من منى ... من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمى النبى المصطفى وابن عمه ... وفكّاك أغلال ونفاع غارم
أبى فهو لا يشرى هدى بضلالة ... ولا يتقى فى الله لومة لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه ... حلولا بهذا الخيف خيف المحارم
بحيث الحمام آمن الروع ساكن ... وحيث العدو كالصديق المسالم
فما فرح الدنيا بباق لأهله ... ولا شدة البلوى بضربة لازم

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٧ .

تخبر من لا قيت أنك عائذ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم[١]

وقد سقط المختار آخر الأمر ، وسيطر ابن الزبير على البصرة والكوفة ولكن أثر هذه الشخصية الغريبة لم يسقط فى السياسة والعقيدة ، فقد أدى مقتله إلى تطور بالغ فى تاريخ الشيعة إذا اتجهت الشيعة بعد مصرعه إلى الدعوة والمقاومة السرية ووضع مبدأ التقية الذى أخذ به ابن الحنفية نفسه عندما لحق بعبد الملك بعد خلاصه من سجن ابن الزبير ، كما أخذ به شاعره كثير الذى مضى فى ركابه ، ويمكن أن يقال إن الشيعة لزمت حالة الكمون بعد سقوط المختار وسيطرة عبد الملك على الأقاليم المختلفة وتوحيدها وقد ظلت الدولة تحته نحواً من عشرين عاما يسوسها بحذر ومهارة ودهاء وارتدعت الشيعة فى عهده وعهد خلفائه إلى عهد هشام بن عبد الملك الذى نسميه بطور النظر فى تاريخ العقيدة الشيعية .

ولا نسمع أن الشيعة أتت أحداثاً هامة خلال الفترة التى سبقت عهد هشام ابن عبد الملك حتى خروج زيد بن على ، إلا ما كان من خروج بعض الجعفرية على خالد القسرى ، وهو يخطب على المنبر ، ولم يكن يعلم بخروجهم ، وكانوا يتصايحون لبيك جعفرا ، فلما بلغه خبرهم دهش ولم يعلم ما يقول فزعا ، فقال أطعمونى ماء ، ثم خرج الناس إليهم فأخذوا ، فجعل يجىء بهم إلى المسجد ويؤخذ طن قصب فيطلى بالنفط ويقال للرجل : احتضنه ، ويضرب حتى يفعل ثم يحرق حتى حرقوا جميعا ، فلما قدم يوسف بن عمر دخل عليه الكميت فمدحه وذكر فعل خالد بهم فقال :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرتاج المضبب
وما خالد يستطعم الماء فاغرا بعدلك والداعى إلى الموت ينعب[٢]

ولكنه لا يلبث حتى يهجوه هجاء مرًّا بعد قتل زيد بن علىّ على يد شرطته بقوله :

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣١ .

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .

يعز على أحمد بالذى أصاب ابنه أمس من يوسف
خبيث من العصبة الأخبثين وإن قلت زانين لم أقذف[١]

ولما خرج زيد بن علىّ على هشام بن عبد الملك وقتل ، دفنه بعض أنصاره خفية فى قاع قناة حبس عنها الماء ثم أطلق ، ولكن بعض العبيد دلوا يوسف ابن عمر على مكانها فاستخرجت وأخذت إلى الكناسة حيث صلبت وبقيت جثته مصلوبة إلى أن مات هشام، فقال حكيم بن عياش الكلبى شاعر بنى أمية :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أر مهديًّا على الجذع يصلب
وقسّم بعثمان علياً سفاهة وعثمان خير من علىّ وأطيب[٢]

وكان لمقتله وصلبه رنة حزن وأسى فى شعر الشيعة فبكوه معولين منذرين من مثل قول المفضل المطلبى :

ألا يا عين لا ترقى وجودى بدمعك ليس ذا حين الجمود
غداة ابن النبى أبو حسين صليب بالكناسة فوق عود
يظل على عمودهم ويمسى بنفسى أعظم فوق العمود
تعدى الكافر الجبار فيه فأخرجه من القبر اللحيد
فظلوا ينبشون أبا حسين خضيبا بينهم بدم جسيد
فطال به تلعبهم عتواً وما قدروا على الروح الصعيد
وجاور فى الجنان بنى أبيه وأجداداً هم خير الجدود
فكم من والد لأبى حسين من الشهداء أو عم شهيد
ومن أبناء أعمام سيلقى هم أولى به عند الورود
دماء معاشر نكثوا أباه حسيناً بعد توكيد العهود
فسار إليهم حتى أتاهم فما أرعوا على تلك العقود
وكيف تضن بالعبرات عينى وتطمع بعد زيد فى الهجود
وكيف لها الرقاد ولم تراعى جياد الخيل تعدو بالأسود

---

(١) الهاشميات ص ١٥٧
(٢) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٣٦٠

تجمع للقبائل من معد ومن قحطانْ فى حلق الحديد
كتائب كلما أردت قتيلا تنادت أنْ إلى الأعداء عودى
بأيديهم صفائح مرهفات صوارم أخلصت من عهد هود
بها نسقى النفوس إذا التقينا ونقتل كل جبـــار عنيد
ونحكم فى بنى الحكم العوالى ونجعلهم بها مثل الحصيد
وننزل بالمعيطيين حـــرباً عمارة منهم وبنو الوليد
وإن تكمن ظروف الدهر فيكم وما يأتى من الأمر الحديد
نجازيكم بما أوليتمونا قصاصا أو نزيد على المزيد
ونترككم بأرض الشام صرعى وشتى من قتيل أو طريد
تنوء بكم خوامعها وطلس وضارى الطير من بقع وسود
وليست بآيس من أن تصيروا خنازيراً وأشباه القرود[1]

وعلى هذه الصورة من اللوعة والحزن كان بكاء الشيعة لزيد وحسرتهم على قتله ونبش قبره وصلبه والتلعب بجسده، ولوكان زيد أول من فعل به ذلك لهان الخطب ولكن أعمامه وأبناء أعمامه لقوا نفس المصير فقتلوا وصلبوا وتخاذل الناس عنهم بعد أن أعطوهم المواثيق والعهود ، وكيف لعين الشاعر أن تضن بالعبرات أو تطمع فى الهجود بعد زيد ؟ وكيف نومه على الفراش ، ولم تحشد الكتائب لحرب الجبارين ومجازاتهم بمثل ما قدموا قصاصاً أو يزيد على ذلك حتى تتركهم فى عقر دارهم فى الشام صرعى وقتلى مجندلين ومشردين تنهشهم السباع والطيور .

وهكذا ذهب فى البكاء والتحريض شعر الشيعة فى رثاء زيد وكان بعض من رثاه يلتفت إلى خذلان أهل الكوفة له واعتذارهم عن نصرته بحجة أن يوسف ابن عمر قد احتجزهم ليلتها فى المسجد ، يقول أبو ثميلة الأبار :

أبا الحسين أعار فقدك لوعة من يلق ما لاقيت منها يكمد
فغدا السهاد ولو سواك رمت به الـ أقدار حيث رمت به لم يشهد

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩

ونقول : لا تبعد وبعدك داؤنا وكذاك من يلق المنية يبعد
كنت المؤمل للعظائم والنهى ترجى لأمر الأمة المتأود
فقتلت حين رضيت كل مناضل وصعدت فى العلياء كل مصعد
فطلبت غاية سابقين فنلتها بالله فى سير كريم المورد
وأبى إلهك أن تموت ولم تسر فيهم بسيرة صادق مستنجد
والقتل فى ذات الإله سجية منكم وأحرى بالفعال الأمجد
والناس قد أمنوا وآل محمد من بين مقتول وبين مشرد
نصب إذا ألقى الظلام ستوره رقد الحمام وليلهم لم يرقد
يا ليت شعرى والخطوب كثيرة أسباب موردها وما لم يورد
ما حجة المستبشرين بقتله بالأمس أوماغدرأهل المسجد [1]

وشاع فى رثاء زيد الندم على خذلانه وعدم نصرته كما جاء فى شعر الكميت ابن أزيد من مثل قوله :

دعانى ابن الرسول فلم أجبه ألهفى لهف للقلب الفروق
حذار منية لا بد منها وهل دون المنية من طريق [2]

وكان زيد قد كتب إلى الكميت عند خروجه أن اخرج معنا يا أعيمش ألست القائل :

ما أبالى إذا حفظت أبا القا سم فيكم ملامة اللوام ؟

فكتب إليه الكميت بقوله :

تجود لكم نفسى بما دون وثبة تظل لها الغربان حولى تحجل [3]

وقد حدثت مناقضة بين شاعر من شعراء الأنصار وأحد شعراء الشيعة على إثر وصول رأس زيد بن على إلى المدينة بعد وفاة هشام ، فقد حمل الشاعر الأنصارى

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٥٠
(٢) الهاشميات ص ١٥٧
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ ، الهاشميات ص ١٣٧

على زيد حملة شعواء قال فيها :

ألا يا ناقض الميثا ق أبشر بالذى ساكا
نقضت العهد والميثا ق قِدماً كان قد حاكا
لقد أخلف إبليس الـــــذى قد كان مناكا

فلما قيل له : ويلك أتقول هذا لمثل زيد ؟ قال : « إن الأمير غضبان فأردت أن أرضيه » فرد عليه شاعر من الزيدية بقوله :

ألا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفاكا
أتشتم ابن رسول اللّـــــه وترضى من تولاكا
ألا صبحك الله بخزى ثم مساكا
ويوم الحشر لا شك بأن النار مثواكا[1]

وقد لقى يحيى بن زيد مصير أبيه ، وكان نصر بن سيار قد دفعه إلى التنقل من مكان إلى آخر حتى التجأ إلى عربى نبيل فى بلخ ودل عليه هناك فقبض عليه ، وصادف ذلك وفاة هشام فأمر الوليد بن يزيد بإطلاق سراحه ، ويبدو أن نصر بن سيار كان قد جعله فى سلسلة وضيق عليه تضييقا شديداً قبل أن يطلق سراحه بأمر الخليفة ، وفى هذا يقول رجل شيعى من بنى ليث يذكر ما صنع بيحيى :

أليس بعين الله ما تصنعونه عشية يحيى موثق فى السلاسل[2]

وبعد إطلاق سراحه ، لم يتركه عمال نصر فطاردوه ، واضطروه إلى القتال واستطاع بسبعين رجلا معه أن يهزم جيشاً أرسله نصر بن سيار ، وقوى الأمل فى نجاحه فيما أخفق فيه أبوه ، يقول أبو ثميلة الآبار متمنياً أن يقر به عين أمه ريطة :

فلعل راحم أم موسى والذى نجاه من لجج خضم مزبد
سيسر ريطة بعد حزن فؤادها يحيى ويحيى فى الكتائب مرتدى[3]

---

(١) الطبرى حـ ٨ ص ٢٧١
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٥٥
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٥٢

ولكن نصر بن سيار يبعث إليه بجيش آخر فيقتل يحيى فى المعركة إثر إصابته بسهم فى صدغه بقرية أرغونة ، وأمر الخليفة الذى أفرج عنه من قبل بجز رأسه وصلبه ثم بإحراقه حتى يصير رماداً وإلقائه فى الماء .

وكانت حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب آخر حركات الشيعة فى عهد بنى أمية ، وكان شيعة الكوفة قد انتهزوا الصراع الدائر بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد على الخلافة فأغروا عبد الله بالخروج ولكنهم ما لبثوا أن انفضوا من حوله ، وتركوه قائما بين بعض الزيدية الذين رأوها فرصة سانحة للانتقام لزيد ويحيى وبخاصة أن عبد الله كان زوجا لبنت زيد بن على ، وخرج بهم عبد الله إلى بلاد الجبل حيث عظم أمره هناك ثم استقر قليلا فى أصبهان ومنها توجه إلى اصطخر من إقليم فارس حيث تمكن من إخضاع منطقة شاسعة جداً وفصلها عن جسد الدولة وانضمت إليه طوائف مختلفة جد الاختلاف جمعها العداء لبنى أمية ، وخاض عبد الله حرباً عنيفة ضد جيوش مروان بن محمد حتى هزم أمامها آخر الأمر وفر إلى كرمان حتى بلغ هراه ولكنه لم يجد ترحيباً من أبى مسلم الخراسانى ، فغدر به أبو مسلم وقتله .

ولم يسجل الشعر الشيعى شيئاً من أحداث حركته وإن مدحه فأكثر مدحه إبراهيم ابن هرمة[1] وليس هناك سبب لذلك غير أن تشيعه كان متهما لزندقته وطموحه الشخصى الذى دفعه إلى تسخير عناصر مختلفة تمام الاختلاف فى عدائه للدولة الأموية .

٢

لو تصفحنا ما بين أيدينا من شعر الشيعة فى عصر بنى أمية لوجدناه يذهب فى عدة أغراض تستغرقها منازع حب آل البيت حباً قد ينتهى إلى الزهد فى الدنيا وتمثله مقربا إلى الجنة ، ومنازع الثورة على بنى أمية ثورة تطوى فى داخلها حقدا

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٧٢ ، مقاتل الطالبيين ص ١٦١

شديداً ودعوة ملحة إلى سفك دمائهم كما سفكت دماء شهداء الشيعة علىّ والحسن والحسين وزيد بن على ويحيى بن زيد وغيرهم من زعماء الشيعة ودعاتها البارزين، وهم دائماً يبكون هؤلاء الشهداء بكاء حاراً حتى لتستحيل كثرة شعرهم بكائيات مغرقة فى اللوعة والحزن وتحريضاً على الثأر لهم وحملات على بنى أمية ينعتون فيها بنعوت تخرجهم عن دائرة الإيمان والإسلام ، وتصمهم بالظلم والجبروت والاغتصاب ، وجدالا عن الحق المغتصب جدالا عقلياً وعاطفياً وتعبيرا عن عقيدتهم فى الإمام الذى إن اختلفوا حول شخصه فهم لا يختلفون فى ضرورة كونه من آل البيت الذين آلت إليهم الإمامة نصاً وتعيينا .

وقد امتلأت قلوبهم بالحب لآل البيت حبا يملك على نفوسهم أهواءها ومشاعرها وتعبدا بهذا الحب الذى تمكن من قلوبهم فصار ركنا من أركان إيمانهم لاعتقادهم بأن حب على وآله مظهر من مظاهر حبهم لله تعالى لنبيه — صلى الله عليه وسلم — .

وهذا أبو الأسود الدؤلى وقد عابه قوم على تشيعه يعلن حبه للرسو وعمه العباس وحمزة ووصى النبى علىّ ، وهو يقرن حبه إياهم بحب الله ويؤكد أنه حب متأصل فى نفسه منذ شرح الله صدره للإسلام لم ينحرف عنه وسيظل عاكفا عليه حتى يبعث يوم القيامة حافظا له ويتوجه باللوم لمن عاب تشيعه من العثمانية فيصمهم بالسماجة والخسة ، ويعود يؤكد حبه لآل البيت وثباته عليه ويقينه من صوابه ؛ فإن كان حبه لهم رشادا فى نظر لائميه فالحمد لله الذى هداه إليه وإن كان ضلالا فى اعتقادهم فهو صواب ورشاد فى اعتقاده، يقول :

أحب محمدا حبا شديدا ... وعباسا وحمزة والوصيا
وجعفر إن جعفر خير سبط ... شهيد فى الجنان مهاجريا
أحبهم كحب الله حتى ... أجىء إذا بعثت على هويا
هوى أعطيته منذ استدارت ... رحى الإسلام لم يعدل سويا
يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليا

فقلت لهم وكيف يكون تركى ... من الأعمال ما يقضى عليا
بنو عم النبي وأقربوه ... أحب الناس كلهم إليا
فإن يك حبهم رشدا أصبه ... ولست بمخطئ إن كان غيا
هم أهل النصيحة من لدنى ... وأهل مودتى ما دمت حيا
رأيت الله خالق كل شيء ... هداهم واجتبى منهم نبيا
هم آسوا رسول الله حتى ... تربع أمره أمراً قويا
وأقواما أجابوا الله خوفاً ... له لا يجعلون له سميا
مزينة منهم وبنو غفار ... وأسلم أضعفوا معه بليا
يقودون الجياد مسومات ... عليهن السوابغ والمطيا[1]

ولقد عاب عليه بنو قشير تشككه فى قوله « فإن يك حبهم » فقال يرد عليهم أما سمعتم قول الله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين »[2] وكان أبو الأسود يتقرب إلى الله بحب آل البيت ، وقد سأله زياد بن أبيه عن حبه لعلى فقال إن حب على يزداد فى قلبى كما يزداد حب معاوية فى قلبك فإنى أريد الله والدار الآخرة بحبى عليا وتريد الدنيا وزينتها بحبك معاوية[3] .

وقد حاول معاوية أن يفتن أبا الأسود عن حبه لآل البيت فلم يوفق وأخفقت هداياه التى كان يبعث بها إلى أبى الأسود ، وكان قد أهداه ذات يوم هدايا فيها حلوى فسألته ابنته من أين هذه الهدية ، فقال بعث بها معاوية يخدعنا عن ديننا ، فقالت ابنته على البديهة :

أبالشهد المزعفر يابن حرب ... نبيع عليك أحسابا ودينا
معاذ الله كيف يكون هذا ... ومولانا أمير المؤمنينا[4]

---

(١) ديوان أبى الأسود الدولى ص ١٧٦
(٢) مقدمة الديوان ص ٣٩
(٣) تأسيس الشيعة ص ٤٤ ، ديوان أبى الأسود ص ٧٨
(٤) ديوان أبى الأسود ص ٧٨

وكان أبو الأسود شأن كثيرين مثله يعتد اعتدادا شديداً بحب آل البيت جعله يلاحى فى سبيله بنى أمية وولاتهم وأصهاره من بنى قشير وأصدقاء له كثيرين انتقصوا لديه علياً فكان يرد عليهم وكأنه يرد على كل لائميه فى هذين البيتين إذ يقول :

أمفندى فى حب آل محمد ... حجر بفيك فدع ملامك أو زد
من لم يكن بحبالهم متمسكا ... فليعترف بولاء من لا يرشد[1]

وهذا عبد الله بن كثير السهمى يرد على من يعيبون عليه تعلقه بآل البيت فيرى هذا الذى يعدونه عليه ذنباً إنما هو كفارة الذنب فى قوله :

إن امرءاً أمست معايبه ... حب النبى لغير ذى ذنب
وبنى أبى حسن ووالدهم ... من طاب فى الأرحام والصلب
أيعد ذنباً أن أحبهم ... بل حبهم كفارة الذنب[2]

وهذا أخوه كثير بن كثير السهمى وقد سمع عمال خالد القسرى يلعنون عليا وأبناءه على المنابر يحتج على ذلك ويلعن لاعنيهم فى قوله :

لعن الله من يسب عليا ... وحسينا من سوقة وإمام
أيسب المطيبون جدوداً ... والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الظبى والحمام ولا يأ ... من آل الرسول عند المقام
طبت بيتا وطاب أهلك أهلا ... أهل بيت النبى والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم ... كلما قام قائم بسلام[3]

ولم يكن هذا الحب مقصوراً على الشيعة فحسب وإنما كان هنالك من المسلمين من كان يستشعر حب آل البيت ويؤمن بحقهم على الرغم من اختلافه معهم فى المذهب والرأى وليس أدل على ذلك من النعمان بن بشير الأنصارى

---

(١) ديوان أبى الأسود ص ٢٥٣
(٢) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٣٦٠
(٣) معجم الشعراء ص ٣٤٨ ، المؤتلف والمختلف ١٦٩ ، والحيوان جـ ٣ ص ١٩٤

وهو عثمانى الهوى ، وشهد مع معاوية صفين ، ولم يكن معه من الأنصار غيره ، ولكنه على الرغم من ذلك كان يؤمن بحق آل البيت فى الخلافة كما يبدو فى قوله وقد غضب من هجاء الأخطل للأنصار .

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة ... سيرقى بها يوما إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإننى ... لتلك التى فى النفس منها أكاتم
فما أنت والأمر الذى لست أهله ... ولكن ولى الحق والأمر هاشم
إليهم يصير الأمر بعد شتاته ... فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم ... ومنهم له هاد إمام وخاتم[1]

وقد دفع هذا الحب ببعض الشيعة دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفراً منهم إلى الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل ، من مثل حرب بن المنذر بن الجارود الذى قنع من دنياه باليسير القليل من الطعام الكفيل بإقامة أوده وقنع من دنياه بكفن الكتان ، وحسبه من دنياه وأخراه أنه يحب آل البيت استجابة للآية الكريمة : « قل ما أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » يقول حرب :

فحسبى من الدنيا كفاف يقيمنى ... وأثواب كتان أزور بها قبرى
وحبى ذوى قربى النبى محمد ... فما سألنا إلا المودة من أجر[2]

فحبهم لآل البيت مما يتزودون به ويتقربون به إلى الله ، بل ويطلبون به النجاة من العذاب كما يذهب إلى ذلك شاعر الكيسانية السيد الحميرى حيث يقول :

إنى امرؤ حميرى غير مؤتشب ... جدى رعين وأخوالى ذوويزن
ثم الولاء الذى أرجو النجاة به ... يوم القيامة للهادى أبى حسن[3]

وهذا الكميت لا يرى شيعة إلا آل البيت ، ولا مذهباً إلا مذهبهم ،

---

(١) الأغانى جـ ١٤ ص ١٢٣ .
(٢) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٣٦٥
(٣) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٣٦٠

فإليهم تتطلع نوازع قلبه ولبه وهو لا يبالى بمن يكفرونه لحبهم ويقطعون بإساءته فهم لا يعيبونه عن رشاد ولكن عن خبث وضلال ويسخرون من حبه آل البيت وهو يعجب من سخريتهم ، وينعتونه بالترابى نسبة إلى أبى تراب ، وهو يعتز بهذا النعت غاية الاعتزاز فيقول :

فمالى إلا آل أحمد شيعة ... ومالى إلا مشعب الحق مشعب
ومن غيرهم أرضى لنفسى شيعة ... ومن بعدهم لا من أجل وأرجب
إليكم ذوى آل النبى تطلعت ... نوازع من قلبى ظماء وألبب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم ... وطائفة قالوا مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفير هاتيك منهم ... ولا عيب هاتيك التى هى أعيب
يعيبوننى من خبهم وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا : ترابى هواه ورأيه ... بذلك أدعى فيهم وألقب[1]

وكان بعض الشيعة يرى حب آل البيت دينا وبغضهم كفرا ، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض كما يذهب إلى ذلك الحزين الكنانى فى مديح على ابن الحسين إذ يقول :

من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أوقيل من خير أهل الأرض قيل هم[2]

وقد استتبع هذا الحب المخلص الجارف لآل البيت عداء شديدا لغاصبيهم حقوقهم من بنى أمية ، ورأيا سيئا فى عثمان ، ويظهر ذلك فى قول أبى العباس الأعمى الأموى عن صديقه الشيعى أبى الطفيل عامر بن واثلة :

لعمرك إننى وأبا طفيل ... لمختلفان والله الشهيد
أرى عثمان مهتديا ويأبى ... متابعتى وآبى ما يريد[3]

---

(١) الهاشميات ص ٣٧
(٢) زهر الآداب جـ ١ ص ٧٣
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ٥٧

وامتلأ شعر الشيعة بالسخط والمرارة عليهم وعلى ولاتهم الذين يعنفون بأئمتهم فيقتلونهم وينبشون قبورهم ويصلبونهم على الأعواد فى الأسواق .

وكما أظهروا العداء لبنى أمية أظهروه لغيرهم من الفرق ، فإن كان بنو أمية قد فعلوا ذلك فإن الزبيريين أيضاً ليسوا بأهل لما يدعونه من ولاية أمر المسلمين ، وكذلك الخوارج الذين فرقوا شيعة على وقتلوه وتسببوا فى خذلانه أمام أهل الشام والمرجئة الذين يرجون عليا ولا يقطعون بإيمانه وصواب مذهبه .

ولكن عداءهم لبنى أمية بطبيعة الحال كان أشد ، وهذا الكميت شاعر الزيدية يحمل عليهم حملة شعواء ، ويجاهر بلعنهم دون تقية ودون خوف لسلطانهم أو جبروتهم ويأمل فى الرضا من آل هاشم لتم به نعمة الله على المسلمين ، يقول الكميت فى الحملة على بنى أمية :

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا
ألا أف لدهر كنت فيه ... هدانا طائعا لكم مطيعا
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا
ويلعن فذ أمته جهارا ... إذا ساس البرية والخليعا
بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حيا لأمته ربيعا
وليثا فى المشاهد غير نكس ... لتقويم البرية مستطيعا
يقيم أمورها ويذب عنها ... ويترك جدبها أبدا مريعا[1]

فهو يتمنى أن يكون الأمر لإمام هاشمى يغير ظلم الأمويين جميعا سواء فى ذلك معاوية أو الوليد أو غيرهما ، وهو يدعو الأمة إلى أن تستيقظ من غفوتها فتنفض عنها هذا الظلم المنيخ وهذه السوءات التى ما كانت لتظهر لو كانوا يقظين ، فقد عطلت الأحكام حتى لكأن المسلمين على غير دين الإسلام ، وقد أعادها بنو أمية جاهلية عمياء والمسلمون يكتفون بالتشدق بالدين ويتركون لبنى أمية أن يعبثوا بالدين كما يشتهون لأنهم ركنوا إلى الدنيا واستوحشوا فراقها على الرغم

(١) الهاشميات ص ٣ ، الأغانى ج ١٥ ص ١١٤ .

من أنهم يلاقون فيها ما هو أمر من الموت والقتل ، وكيف لا وأمور الناس أضحت مضيعة يتلعب بها بنو أمية ، وإلا فهل يجمعهم وإياهم كتاب يقضى بالحق والعدل ؟ وكيف وهم يختلفون عنهم فريق يسمن وفريق يهزل؟ وما دام الأمر كذلك فلا صلاح لأمر الدنيا لفساد أمر الدين وقد أصبح يعنى بأمره ونهيه ذلك البرذون المركول هشام بن عبد الملك ، ولو كان يتدبر بآيات الكتاب لنهته عما يأتيه من الخطايا ، أم أن على قلوب أقفالها؟ هؤلاء هم ملوك السوء من بنى أمية الذين طال ملكهم ، فاستحدثوا البدع وأحلوا الحرام وحرموا الحلال وسفكوا دماء المسلمين ، فحتام يا رب هذا العناء .... يقول الكميت :

ألا هل عم فى رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الإساءة مقبل
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى نتنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا ... وأفعالَ أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جنة مما نخاف ومعقل
أرانا على حب الحياة وطولها ... تجدّ بنا فى كل يوم ونهزل
فتلك أمور الناس أضحت كأنها ... أمور مضيع آثر النوم بهل
فياساسة هاتوا لنا من حديثكم ... ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... عن الحق نقضى بالكتاب ونعدل ؟
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل ؟
أتصلح دنيانا جميعا وديننا ... على ما به ؟ ضاع السوام المؤبل
كأن كتاب الله يعنى بأمره ... وبالنهى فيه الكودنى المركل
ألم يتدبر آية فتدله ... على ترك ما يأتى أم القلب مقفل ؟
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتى م حتى م العناء المطول؟
لهم كل عام بدعة يحدثونها ... أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا

كما ابتدع الرهبان ما لم يجىء به كتاب ولا وحى من الله منزل
تحل دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل
فيارب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول[١]

وليس شك فى أن الكميت أثار بهذه القصيدة ثائرة هشام بن عبد الملك وأحفظه حتى عظم أمرها عليه ، واستنكرها وأقسم ليقطعن لسانه ويده[٢] .

وقد لا يعنف الشعر الشيعى ببنى أمية كل هذا العنف وإنما يسلك سبيلا معتدلا فى إظهار عدائه وكراهيته لهم كما فعل المفضل المطابى فى أبيات توجه بها إلى بنى أمية راجيا أن يكفوا عن بنى عمهم فلا ينبشون أحقاد الماضى الدفينة ولا يطمعون فى أن يهينوهم وأن يكرمهم هؤلاء فى مقابل ذلك ، وهو يصرح فى هدوء ودون انفعال بالكراهية المتبادلة بين الفريقين وهو لا يلومهم لأنهم يكرهون بنى هاشم إذ أن ذلك أمر مفروغ منه فلكل وجهته ومذهبه فى بغض صاحبه ، يقول :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
مهلا بنى عمنا عن نحت أثلتنا سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنا لا نحبكم ولا نلومكم أن لا تحبونا
كل له نية فى بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا[٣]

وقد مر بنا كيف افتك جند المختار محمد بن الحنفية ورهطا من بنى هاشم من سجن عارم الذى حبسهم فيه عبدالله بن الزبير وأزمع إحراقهم فيه بعد أن امتنع ابن الحنفية عن البيعة له ، وقد أغاظ هذا الصنيع عبد الله بن الزبير فكتب إلى مصعب أن يسير نساء كل من خرج لذلك ، فأخرجهن وأخرج فيهم امرأة أبى الطفيل عامر بن واثلة الكنانى الشيعى وابنا له صغيرا يقال له يحيى ، وكان

---

(١) الهاشميات ص ١٢٣
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٠
(٣) شرح حماسة التبريزى جـ ١ ص ٧٤

أبو الطفيل من أمراء هذا الجيش الذى افتك ابن الحنفية فقال فى ذلك :

فإن يك سيرها مصعب ... فإنى إلى مصعب مذنب
أقود الكتيبة مستلئما ... كأنى أخو عرة أجرب
على ّ دلاص تخيرتها ... وفى الكف ذو رونق يقضب[1]

وفخر أبو الطفيل بانتصاره ذاك يوم عارم وزها بإنقاذ ابن الحنفية من براثن بنى الزبير فى مواضع كثيرة من شعره من مثل قوله :

ولما رأيت الباب قد حيل دونه ... تكسرت باسم الله فيمن تكسرا[2]

وهجا أبو الطفيل عبد الله بن الزبير منتصراً لعبد الله ولعبيد الله ابنى العباس ورأى فى ذلك ما يفخر به وكان عبد الله قد خشى خطرهما عليه بمكة بعد أن قال له عبد الله بن صفوان « إن عبد الله يفقه الناس وعبيد الله يطعمهم فما أبقيا لك » فأحفظه ذلك وأرسل صاحب شرطته عبد الله بن مطيع وقال له انطلق إليهما فقل لهما : أعمدتما إلى راية ترابية قد وضعها الله فنصبتماها ؟ بددا عنى جمعكما ومن ضوى إليكما من ضلال أهل العراق وإلا فعلت وفعلت فقال عبد الله لابن مطيع : قل لابن الزبير : يقول لك ابن عباس ثكلتك أمك ، والله ما يأتينا من الناس غير رجلين طالب فقه أو طالب فضل فأى هذين نمنع ؟

فقال أبو الطفيل فى ذلك :

لا درّ درُّ الليالى كيف تضحكنا ... منها خطوب أعاجيب وتبكينا
ومثل ما تحدث الأيام من غير ... يا ابن الزبير عن الدنيا تسلينا
كنا نجىء ابن عباس فيقبسنا ... علما ويكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيد الله مترعة ... جفانه مطعما ضيفا ومسكينا
فالبر والدين والدنيا بدارهما ... ننال منها الذى نبغى إذا شينا

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ١٦٠
(٢) نفس الموضع

إن النبي هو النور الذى كشفت به عمايات باقينا وماضينا
ورهطه عصمة فى ديننا ولهم فضل علينا وحق واجب فينا
ولست فاعلمه أولى بهم رحما يا ابن الزبير ولا أولى به دينا
ففيم تمنعهم عنا وتمنعنا عنهم وتؤذيهم فينا وتؤذينا ؟
لن يؤتى الله من أخزى ببغضهم فى الدين عزًّا ولا فى الأرض تمكينا(١)

وهكذا يصدر الشيعى فى مواجهة الزبيريين عن حب وتقدير لآل الرسول لفضلهم وبرهم ولأنهم عصمة الدين وأهل الفضل على المسلمين وليس ابن الزبير فى مقامهم ولا هو أهل لما يدعيه من الأمر دونهم ، فرحمه ليس أولى من رحمهم ودينه ليس كدينهم فلماذا يطاولهم ويمنعهم عن الناس ويمنع الناس عنهم ويؤذى الناس فيهم والله لا يؤتى من أبغض آل بيت رسوله عزًّا فى الدين ولا مكنة فى الأرض إذ ليس له جزاء بغضهم غير الخزى والذلة والمهانة .

ولم يكن موقف الشيعة من الخوارج خيراً من موقفهم من الزبيريين ، وإنما كان أكثر شدة وحنقا ، لأن الخوارج هم الذين قتلوا عليًّا وكفروه ، ولقد كاد علىّ أن يجتث أصولهم يوم النهروان ، وهكذا فقد ظلت البغضاء والكراهية حية ومتبادلة بين الفريقين .

وقد سجل شعر الشيعة هذه الكراهية ، وهذا الكميت بن زيد يصوب فعل علىّ بهم يوم النهروان فيقول :

إنى أدين بما دان الوصى به يوم النخيلة من قتل المحلّينا
وبالذى دان يوم النهر دنت به وشاركت كفه كفى بصفينا
تلك الدماء معاً يا رب فى عنقى ومثلها فاسقنى آمين آمينا(٢)

فهو لا يبرأ من دمائهم وإنما يتمنى أن يسقيه الله مزيداً من دمائهم تلك ، فهم محلون للحرمات ، وكان الوصى محقًّا فى اجتثاث أصولهم يوم النهروان ويوم النخيلة .

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ١٦١
(٢) تهذيب الكامل جـ ١ ص ٨٦ .

ومن ذلك أيضاً قول السيد الحميرى شاعر الكيسانية فى خروجهم على علىّ وتجبرهم فى أمرهم وتمردهم على تحكيم كتاب الله ، وكيف انتقم الله منهم فتركوا طعمة لجوارح الطير ، يقول :

خوارجُ فارقوه بنهروان ... على تحكيمه الحسن الجميل
على تحكيمه فعموا وصموا ... كتاب الله فى فم جبرئيل
فمالوا جانباً وبغوا عليه ... فما مالوا هناك إلى مميل
فتاه القوم فى ظلم حيارى ... عماة يعمهون بلا دليل
فضلوا كالسوائم يوم عيد ... تنحر بالغداة وبالأصيل
كأن الطير حولهم نصارى ... عكوفاً حول صلبان الأبيل[1]

وكان إرجاء المرجئة الحكم على علىّ شأنه فى ذلك شأن عثمان ومعاوية والخوارج وأصحاب الجمل محنقاً للشيعة الذين لا يضعون أحداً من هؤلاء جميعاً فى مقام على أو فى مقام يدانيه ، ولهذا حمل الشيعة على المرجئة لهذه السلبية التى لا تنصف الشيعة من أعدائهم .

وقد استغل السيد الحميرى فى هجومه على المرجئين خبراً سمعه من بعض المحدثين يقول : إن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان ساجداً فركب الحسن والحسين وهما طفلان آنذاك على ظهره فقال عمر بن الخطاب : نعم المطى مطيكما . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — ونعم الراكبان ، فساق السيد الخبر ليستدل به على مكانة السبطين وأمهما وأبيهما من النبى ولينتقض بذلك رأى المرجئة فى تسويتهم ما بين على وذريته وغيرهم ممن يرجئون الحكم عليهم ، فقال :

أتى حسن والحسين النبى ... وقد جلسا حجزة يلعبان
ففداهما ثم حياهما ... وكانا لديه بذاك المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه ... فنعم المطية والراكبان
وليدان أمهما برة ... حَصان مطهرة للحَصان

---

(١) مناقب آل طالب جـ ٢ ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

وشخصهما ابن أبى طالب فنعم الوليدان والوالدان
خليلى لا ترجيا واعلما بأن الهدى غير ما تزعمان
وإن عمى الشك بعد اليقين وضعف البصيرة بعد العيان
ضلال فلا تلججا فيهما فبئست لعمركما الخصلتان
أيرجى على إمام الهدى وعثمان ما أعند المرجيان
ويرجى ابن حرب وأشياعه وهوج الخوارج بالنهروان
يكون إمامهم فى المعاد خبيث الهوى مؤمن الشيصبان[١]

وبطبيعة الحال لم يكن هذا موقف كل الشيعة من المرجئة ، وإنما هو موقف الغلاة من الكيسانيين ، أما الزيدية فلم تكن لتعادى المرجئة هذا العداء وهم يذهبون مذهب المعتزلة فى تصحيح خلافة المفضول وجواز أن يكون على أو غيره على الخطأ ومما يؤكد ذلك ما ترويه الروايات من أن المرجئة لم يكونوا يعدلون بزيد أحدا[٢] .

وعلى هذا يختلف موقف الشيعة الزيدية من المرجئة وبخاصة الإيجابيين منهم الذين خرجوا على بنى أمية من مثل الحارث بن سريج وجهم بن صفوان فى خراسان فلقوا منهم كل عطف وتأييد لقضيتهم التى خرجوا من أجلها ، وتشهد بذلك أبيات للكميت يستنفر بها أهل مرو من المرجئة للثورة على بنى أمية حين ولى خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ هـ .

وفى تلك الأبيات ينصح الكميت أهل خراسان على بعد الدار بأن يجدُّوا فى ثورتهم ، ويعتذر للحارث بن سريج عن إعانته بالجند والمال لأن من قبله من الشيعة قد أجهدهم اضطهاد بنى أمية ، ولولا ذلك لزارته من العراقين خيل تردى بالفرسان ، ويتوجه إليهم بألا يهنوا وألا يرضوا بالخسف وألا يخدعهم أسد عن حقهم بوعوده الكاذبة فهم لا يغلبون من قلة وقد ناهزوا السبعين ألفا : وكانت أبيات الكميت كأنها منشور ثورى ألقى به إلى ثوار المرجئة يقول :

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٥
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٢٨ .

ألا أبلغ جماعة أهل مرو على ما كان من نأى وبعد
رسالة ناصح يهدى سلاما ويأمر فى الذى ركبوا بجد
وأبلغ حارثاً عنا اعتذرا إليه بأن من قبلى بجهد
ولولا ذاك قد زارتك خيل من المصرين بالفرسان تردى
فلا تهنوا ولا ترضوا بخسف ولا يغركم أسد بعهد
وكونوا كالبغايا إن خدعتم وإن أقررتم ضيما لوعد
وإلا فارفعوا الرايات سوداً على أهل الضلالة والتعدى
فكيف وأنتم سبعون ألفاً رماكم خالد بشبيه قرد[1]

وهكذا كان الشيعة يرون أنفسهم فوق من عداهم ، ولا يرون لأحد معهم حقًّا فى ولاية أمر المسلمين ولا فضلا يسامى فضلهم وفضل أئمتهم الهداة من آل البيت ، يقول المفضل المطلبى فى هذا الصدد :

ما بات قوم كرام يدعون يدا إلا لقومى عليهم منة ويد
نحن السنام الذى طالت شظيته فما يخالطه الأدواء والعمد[2]

فهم عصمة الدين يقضون نهارهم فى التعبد والمكابدة والصوم وليلهم فى الصلاة والتهجد ، وقد قضى القرآن الكريم بولايتهم وفضلهم ولكن قوما نفسوا عليهم هذا الفضل وأسرع فيهم البلاء وتعرضوا للمحن ولكنهم أبداً لا يقاسون بغيرهم ولا يقاس غيرهم بهم ، فبينهم وبين كل من عداهم بون شاسع وغيرهم أرض لأرجلهم وهم لرءوس غيرهم ولعيونهم سماء سامقة الرفعة والعلاء كما يقول أيمن ابن خريم فيهم :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء
وليتم بالقران وبالتزكى فأسرع فيكم ذاك البلاء
أ أجعلكم وأقواما سواء وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء؟[3]

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٢
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ٥
(٣) الأغانى جـ ٢١ ص ٦ .

وحقاً لم يكن هناك من بين الفرق فرقة تعرضت للمحن وأسرع فيها البلاء كما حدث للشيعة إذ أخذوا يفتقدون أئمتهم واحداً إثر واحد فيقتلون بعد أن يخذلهم الذين أحبوهم ووالوهم واستخرجوهم ليلقوا مصيرهم المفجع حتى لا يكاد ينجو منهم إلا عدد قليل، ومن نجا من القتل لم ينج من السجن أو الاضطهاد والتعذيب ومن قتل لم ينج من الصلب والتنكيل والتمثيل .

ولو أخذنا نقرأ فى شعر الشيعة لوجدناهم محزونين على أئمتهم وشهدائهم الذين سفكت دماؤهم دون أن يرعى قاتلوهم فيهم إلاً ولا ذمة ولا رحما لرسول الله ولا قربى ، وقد تحول شعراؤهم يبكون ويندبون مصيرهم بدموع لا ترقأ ، وربما كان هذا الطابع أهم ما يميز الشعر الشيعى فى هذا العصر (١)

فهو دموع وبكاء وعبرات وزفرات وشكاية حارة وحداد قاتم على ما نزل بالأسرة العلوية من محن وبلاء وتعذيب واضطهاد ولا يستطيع الشيعة فضلا عن الشعراء منهم أن يكفوا معها عن سكب الدموع وتصعيد الزفرات كما لا يستطيعون مغالبة البكاء على من يسقط من أفراد هذه الأسرة شهيداً حتى ليضرب المثل برقة دموع الشيعة فيقال :

أرق من دمعة شيعية تبكى علىّ بن أبى طالب(٢)

وإذا كنا نجد فى الأدب الشيعى موضوعاً لا ينضب معينه ولا يمل كتاب الشيعة ترديده وهو موضوع محن آل البيت (٣) فأجدر بالشعر الشيعى أن يكون حينئذ بكائيات خالصة .

وهذا المعنى الذى مر بنا فى شعر أيمن بن خريم حول إسراع البلاء فى آل البيت لفضلهم وتزكيهم ليس إلا صدى لما شاع بين الشيعة من أحاديث تنسب إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — تتنبأ بالقدر السيىء الذى سوف تنكب به ذريته وكذلك إلى ما يروى من روايات مأثورة عن علىّ يتجلى فيها الوضع والاختلاق .

(١) تاريخ الأدب العربى / العصر الإسلامى ص ٣١٥
(٢) مجمع الأمثال ج ١ ص ١٧٩
(٣) العقيدة والشريعة / ص ١٧٨

وهى أحاديث وروايات لا تكتسب قيمة ما إلا من حيث كونها مؤثرة فى الشيعة حتى ليصبح من سمات الشيعى الحق أن يكون ضاوى الجسد قد برحت به صنوف المشقة والحرمان وجفف شفاهه الصدى ، لا تكف عيناه عن تذراف الدموع فهو بائس شقى ألف العناء والاضطهاد كالأسرة التى يدافع عن حقها ويعانى الآلام من أجلها حتى دخل فى روع المسلمين أن آل البيت قد خصتهم العناية باحتمال آلام الشقاء وعذاب الاضطهاد ، وأخذ الناس بالرواية التى تزعم أن السليل الحقيق لآل البيت لا بد أن يبتلى بالمحن على سبيل الاختبار حتى إذا تبين أنه يعيش فى نعمة ودعة حامت الشكوك حول صحة نسبه [١] .

وقد اتخذ الشيعة فيما بعد ذكرى كربلاء عيداً من أعياد الحزن يصورون فيه تاريخ محنهم تصويراً أخاذاً نزعوا فيه منزعاً مسرحيًّا كما عنوا عناية شديدة بكتب المقاتل التى لا تبعد عن كونها قوائم بأسماء الشهداء ومراثيهم التى تنحل إلى بكاء صرف ودموع سخينة من مثل رثاء سليمان بن قتة للحسين فهو لا يكتفى فيها بالبكاء وإنما يجعل الدنيا كلها من حوله تبكى فليست منازل آل البيت كعهده بها وإنما تغير حالها والشمس أضحت مريضة بفقد الحسين والبلاد اقشعرت من هول الفجيعة والرزء العظيم والسماء تبكى معولة والنجوم تنوح فى صلاة حزينة من أجله ، يقول سليمان :

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها كعهدها يوم حلت
وكانوا رجاء ثم صاروا رزية ... وقد عظمت تلك الرزايا وجلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكى السماء لفقده ... وأنجمها ناحت عليه وصلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمى تخلت
فإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت [٢]

وهذا أبو الأسود الدؤلى يكاد يؤمن بأن آل البيت قد سبقت لهم هذه اللعنة

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٧٨ .
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٢١ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ .

الجاثمة كما يعلم ذلك الراسخون فى الكتاب والعالمون بالأحزاب ، فعلى الشيعى أن يكون لهم جنة يرجى بذلك حوض الرسول والفوز فى الآخرة وليخلص نفسه بهذه التضحية فداء لآل البيت فيقول فى رثاء الحسين ومن أصيب من بنى هاشم معه :

أقول لعاذلتى مرة ... وكانت على ودنا قائمة
إذا أنت لم تبصرى ما أرى ... فبينى وأنت لنا صارمة
ألست ترين بنى هاشم ... قد افنتهموا الفئة الظالمة
فأنت تزينتهم بالهدى ... وبالطف هام بنى فاطمة
فلوكنت راسخة فى الكتا ... ب بالأحزاب خابرة عالمة
علمت بأنهم معشر ... لهم سبقت لعنة جاثمة
سأجعل نفسى لهم جنة ... فلا تكثرى لى من اللائمة
أرجى بذلك حوض الرسو ... ل والفوز والنعمة الدائمة
لتهلك إن هلكت برة ... وتخلص إن خلصت غانمة (١)

وتزخر كتب المقاتل والمناقب الشيعية بقصائد لا حصر لها فى رثاء الحسين وغير الحسين من آل البيت وهى تدور فيها عدة معان بأعيانها من مثل الخجل من رسول الله يوم القيامة إذا سألهم عما فعلوه بعترته وآله كهذه الأبيات التى تنسب إلى أبى الأسود الدؤلى :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
هل كان هذا جزائى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى (٢)

وكذلك التحرج فى طلب شفاعته — صلى الله عليه وسلم — وقد أسلموا أبناءه للظالمين يقتلونهم ويسبون نساءهم سبى الرقيق ، من مثل قول أسماء بنت عقيل :

---

(١) ديوان أبى الأسود الدؤلى ص ١٨٠ — ١٨١ .
(٢) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢٦٢ .

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... يوم الحساب وصدق القول مسموع
خذلتم عترتى أو كنتم غيباً ... والحق عند ولى الأمر مجموع
أسلمتموه بأيدى الظالمين فما ... منكم له اليوم عند الله مشفوع
ما كان عند عداة الطف إذ حضروا ... تلك المنايا ولا عنهن مدفوع [١]

وقد بكت عليهم الملائكة الزهر فى السموات فى ركوعهم وسجودهم كقول القائل :

هلا بكيت على الحسين وأهله ... هلا بكيت لمن بكاه محمد
فلقد بكته فى السماء ملائك ... زهر كرام راكعون وسجد [٢]

وذكرت روايات كثيرة أن الجن أعولت بمقطعات كانت ترثى بها الحسين وآله الذين قتلوا معه ، وأنه تجاوبت بإعوالهن الأرض وأن بعض الجن خفوا لنصرته يوم كربلاء وكذلك سمعت الملائكة وهى تنوح بعد الواقعة [٣] .

ولا تقتصر قصائد الرثاء الشيعية على مجرد البكاء وإنما تتعداه إلى التحريض على الأخذ بثأر الشهداء ومن دافعوا عنهم من رفاقهم وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرتهم ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح [٤].

ومن خير من يصورون تلك الغريزة عوف بن عبد الله الأحمر الأزدى ، وله فى الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحض الشيعة فيها على الطلب بدمه وكانت مكتمة فى عهد بنى أمية لا تروى إلا سراً وفيها يقول عوف [٥]:

صحوت وقد صحوا الصبا والعواديا ... وقلت لأصحابى أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى ... وقبل الدعا : لبيك لبيك داعيا
ألا وانعَ خير الناس جداً ووالداً ... حسيناً لأهل الدين إن كنت ناعيا

---

(١) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢٦٢ .
(٢) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢٦٣ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ٢٧٠ وما بعدها ، مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢١٩ .
(٤) تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى ص ٢١٦ .
(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج ١ ص ٣٣٢ .

وأضحى حسين للرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويا
فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهداً وأعملت سيفى فيهم وسنانيا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى بغربيه الطف الغمام الغواديا
فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيبوا فأرضوا الواحد المتعالي[1]

وكذلك يذهب سليمان بن قتة فى رثاء أبى بكر بن الحسين وهو ممن قتل بكربلاء بيد عبد الله بن عقبة الغنوى بأن للشيعة قطرة من دم لدى غنى لن يسكتوا عن طلبها فيقول :

وعند غنى قطرة من دمائنا سنطلبها يوما بها حيث حلت[2]

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعى يطوى نفسه على حزن عميق ورغبة فى الاشتفاء بسفك دماء من قتل أئمتهم الشهداء ولكن ذلك لم يكن متاحاً لهم وسيوف بنى أمية مصلتة ، وولاتهم يتعقبونهم ويعدون عليهم أنفاسهم ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية التقية وهى تعطى الشيعى الحق فى إخفاء عقيدته وكتمانها حتى لا يعرض نفسه للخطر بل لا مانع يمنعه من مصانعة خصومه ومدحهم على الرغم من إسراره العداوة والبغضاء وهو لا يعد مع ذلك منافقاً أو ضعيف الاعتقاد .

وهكذا كانت التقية نظرية خلقية أفردت الشيعة بصفة بارزة وطبعت روحهم بطابع خاص وترتبط هذه النظرية ارتباطاً وثيقاً بالضرورة الحتمية التى تنجم عما يبذله الشيعة من جهود سرية وقد جعلوها مبدأ من مبادئهم الأساسية وعدوها واجباً ضروريًّا يجب على كل شيعى أن يرعاه من أجل الصالح المشترك لهم جميعاً .

ويرى بعض الباحثين أن الشيعة أصبحت بفضل مبدأ التقية مدرسة للمخاتلة والغدر كما أن عجز الشيعى عن المجاهرة بعقيدته الحقيقية التى يؤمن بها فى نفس

(١) معجم الشعراء ص ١٢٦ .
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٢٢ .

الوقت أصبح مدرسة للسخط الكامن الذى يكنه الشيعة لخصومهم الأقوياء وهو سخط مبعثه عاطفة من الحقد الجامح والتعصب الثائر [١] .

وحقًّا كان السخط على الخصوم ولعنهم أمراً يكاد يبلغ حد الفريضة عند الشيعة ومن قصر فيه عد آثما . وقد تذرع بالتقية شعراء الشيعة ككثير الكيسانى الذى تابع محمد بن الحنفية فى أخذه بالتقية فمضى فى ركابه إلى عبد الملك وأصبح من مداحه ، وراح يثيره على ابن الزبير متمنياً له النصر عليه وإزالة سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً حتى إذا رأوه يعد لحرب مصعب استحثه على المبادرة بمثل قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاه قطينها [٢]

وظل يمدح عبد الملك ، وعبد الملك يرى شعره يسبق السحر ويغلب الشعر [٣] ثم يرتحل إلى مصر فيمدح عبد العزيز بن مروان ، وقد جعل هذا بعض الباحثين المعاصرين يعدونه من الشعراء المنافقين [٤] وهو بالقطع لم يكن منافقاً ولا كان مديحه نفاقاً وإنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه ، ويذكر أبو الفرج أن آل مروان كانوا يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك [٥] .

وكان الكميت يذهب مذهب التقية ، ويروى أبو الفرج عن أخيه ورد ابن زيد أنه قال إن الكميت أرسله إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين فقال له إن الكميت أرسلنى إليك وقد صنع بنفسه ما صنع فتأذن له أن يمدح بنى أمية فقال أبو جعفر نعم هو فى حل فليقل ما شاء [٦] كما يروى أيضا أن

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٨١ .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ٣٤ .
(٤) انظر حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٦ .
(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦ .
(٦) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٠ .

أبا جعفر راجعه فى قوله :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصاير

فاعتذر الكميت لقوله ذلك وأكد أنه ما أراد به إلا الدنيا فقال له أما وقد قلت ذلك فان التقية لتحل [١] .

وكذلك احتج ابنه المستهل على من عيره بقول أبيه هذا بأنه إنما أراد اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى مصايرها أى بنى هاشم [٢] وعلى الرغم من هذه التقية الفنية فإن أمره لم يكن يخفى على بنى أمية الذين لم يروا بأساً من مديحه لهم على الرغم من تشيعه ويظهر هذا واضحاً عندما أنشد هشام بن عبد الملك قول الكميت :

فبهم صرت للبعيد ابن عم ... واتهمت القريب أى اتهام

مبدياً صفحتى على ' الم ... وقف المعلم بالله قولى واعتصامى

فقال هشام : استقتل المرائى [٣] .

ومع كل هذا فإن الشعر الشيعى يسجل لنا مبادئ الشيعة وعقائدها بدقة ووضوح ويمثلها أصدق تمثيل، ويعبر عنها تمام التعبير ؛ فبينما نجد فى شعر كثير كل مبادئ الكيسانية وأفكارها نجد النظرية الزيدية ماثلة فى شعر الكميت .

وقد اعتنق كثير مذهب الكيسانية وأصبح أكبر بوق لهذه النظرية بكل ما فيها من غلو وتطرف وعبر شعره عن أفكارها تعبيراً واضحاً فى دعوتها لابن الحنفية وفى زعمها أنه المهدى المنتظر وأنه ورث عن علىّ علم الباطن ، وأن به قبساً من روح الله وهو قبس ينتقل فى أئمتهم إماما بعد إمام حتى إذا ما توفى قالوا برجعته ، وقد سقط إلى هذه الفرقة كثير من أفكار السبئية كالقول بالتناسخ وأن قبس النبوة لا يزال ينتقل فى علىّ وأبنائه فهم دون غيرهم ولاة الحق . وفى ذلك يقول كثير :

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ .

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .

(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ .

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيّب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء[١]

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين ومحمد بن الحنفية على تساو فى هذه الولاية وهو يأبى إلا أن يسمى مقتل الحسين فى كربلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب فى جبل رضوى يطعم العسل ويشرب الماء وسيقود الخيل يوما فيقوض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه فهو المهدى المنتظر الذى خبروا خبره كما يقول كثير :

هو المهدى خبرناه كعب أخو الأخبار فى الحقب الخوالى[٢]

وهو الوصى الذى أوصى له على وهو لم يمت وإنما تغيب فترة من الزمن ثم يعود ، وفى ذلك يقول السيد الحميرى :

ألا قل للوصى فدتك نفسى أطلت بذلك الجبل المقاما
ألا حى المقيم بشعب رضوى وأهد له بمنزله السلاما
أضر بمعشر والوك منا وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرًّا مغيبك عنهم سبعين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له أرض غظاما
لقد أمسى بمورق شعب رضوى تراجعه الملائكة الكلاما
وإن له به لمقيل صدق وأندية تحدثه كراما
هدانا الله إذ حرتم لأمر به ولديه نلتمس التماما
تمام مودة المهدى حتى تروا راياتنا تترى نظاما[٣]

---

(١) ديوان كثير جـ ٢ ص ١٨٤ الملل والنحل جـ ١ ص ٢٤١ ، الأغانى جـ ٨ ص ٣١ .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣١ .

وقد صور شعر الكيسانية تطرفهم فى عقيدتهم وبراءتهم من الذين اغتصبوا الخلافة دون على وآله كأبى بكر وعمر وعثمان أو ادعوها كالخوارج كما فى قول كثير :

برئت إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنينا[١]

وبينما كان شعر الكيسانية يصور غلوهم المتشدد كان شعر الزيدية يمثل مذهبهم المعتدل خير تمثيل متأثراً فى ذلك الاعتدال بما ثقفه أمامهم من فكر معتزلى على يد أئمة المعتزلة الواصلية .

وكان زيد لا يقيد الخلافة بفرع الحسين جده بل يطلقها فى أبناء فاطمة كلهم سواء أكانوا من فرع جده أم كانوا من فرع الحسن وكذلك كان الكميت على مذهب إمامه لا يتقيد بشخص من أبناء فاطمة كما تقيد كثير بابن الحنفية وقد أدى هذا به ، إلى أن ينطلق مدافعاً فى قصائده عن النظرية الشيعية الزيدية نفسها ملتزما بما يلتزمه إمامه فتبعه يدعو بدعوته ويستن به فى كل ما يأخذ وما يدع من الآراء والأفكار .

ومن هذا القبيل ما ذهب إليه زيد من تصحيح خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على ، اتساقاً مع نظريته فى جواز إمامة المفضول مع قيام الفاضل والأفضل لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها[٢] .

وقد أحدث هذا المبدأ انقساما فى شيعة زيد فخرجت عليه جماعة عرفت بالرافضة وأسقطت حقه فى الإمامة وقد ذهب الكميت مذهب إمامه وتابعه فى نصرة هذا المبدأ فقال فى التوقف عن الحكم بكفر الخلفاء تاركاً ذلك لله مع إنكار سبهم :

أهوى عليًّا أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠ .

ولا أقول إذا لم يعطيا فدكا بنت النبى ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا[١]

والكميت هنا يفصل بين تشيعه وبين تكفير أبى بكر وعمر فهما إن كانا قد منعا ميراث النبى عن ابنته، وكان الشيعة يرون خلافاً لما رآه أبو بكر وعمر من أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يورث وأن ما تركه صدقة ، ليتخذوا من أنه يورث سلما تطرد لهم به فكرة ميراث الخلافة فإن زيداً لم يأخذ بهذه الفكرة بل فوض ذلك إلى الله ولم يستحل لنفسه محاسبة الشيخين عليه، وجرى الكميت على رأى إمامه فلم يكفرهما ولم يخطئهما ، ل توقف فى الحكم عليهما وتركه لله يقضى فيه بما شاء .

ويكاد يكون ديوان الهاشميات الذى نظمه الكميت تقريراً خالصاً لنحلة الزيدية فهو فضلا عن عرضه لمبادئ الزيدية يقررها تقريراً قوامه الجدل والاحتجاج .

فى الهاشميات نجد تقرير الشروط التى اشترطها زيد بن على فى الإمام وهى أن يكون من أبناء فاطمة وأن يكون عالما زاهداً شجاعاً سخيًّا[٢] .

وهذه الصفات الأربعة تتردد عند الكميت كثيراً ولا يمل تكرارها من مثل قوله فى بنى هاشم :

الحماة الكفاة فى الحرب إن لف ضراما وقودها بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا س فمأوى حواضن الأيتام
غالبين هاشميين فى العـ ـلم ربوا من عطية العلام
وهم الآخذون من ثقة الأ مر بتقواهم عرى لا انفصام[٣]

وإلى جانب هذه الصفات كانت صفة أخرى تدور فى شعره الهاشمى وهى صفة العدل، وهى صفة مقدمة عند زيد وإن لم تذكرها كتب الفرق فإنه لا تكاد تخلو

---

(١) الهاشميات ص ١٥٦ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .
(٣) الهاشميات ص ٢ .

منها هاشمية من الهاشميات ولا يكتفى الكميت بتقرير صفة العدل واتصاف الأئمة المهديين بها ، وإنما يلجأ كثيراً إلى المقارنة بين عدلهم وجور بنى أمية وإن الأخيرين لا يتقون الله فى رعاية أمور المسلمين بل يعاملونهم معاملة السائمة وهو يريد بتلك المقارنة هدم نظام الأمويين وتحطيمه ، يقول :

القريبين من ندى والبعيدين من الجور فى عرى الأحكام
راجحى الوزن كاملى العدل فى السير ة طبيِّين بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواء ورعية الأغنام
لا كعبد المليك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام
رأيه فيهم كرأى ذوى الثلة فى الثائجات جنح الظلام
جز ذى الصوف وانتقاء لذى المخ ة وانعق ودعدعا بالبهام
فهم الأرأفون بالناس فى الرأ فة والأحلمون فى الأحلام
أخذوا القصد واستقاموا عليه حين مالت زوامل الآثام[1]

وتبدو صورة الناس تحت حكم بنى أمية كالغنم يجز صوفها ويحتلب لبنها وتؤكل لحومها ولا يكتفى الرعاة الجائرون بكل هذا وإنما يصيحون بها ويزجرونها ويقسون عليها بينما بنو هاشم عدول لا يجورون ولا يظلمون وإنما يقسطون بين الناس فى سياستهم الحكيمة .

ونلقى فى شعر الكميت تقريراً لمسألة وصاية الرسول — صلى الله عليه وسلم — لابن عمه علىّ يوم غديرخم ، وهى عقيدة للشيعة جميعاً لا تقتصر على الزيدية ويقول الكميت بها ولكنه لا ينتهى كما انتهوا إلى أن أبا بكر وعمر قد غصباه حقه وإنما شرط الوصية بالطاعة ليتسق ذلك وما تدين به الزيدية فى قوله :

ويوم الدوح دوح غديرخم أبان له الولاية لو أطيعا[2]

وترى كل الفرق الشيعية أن لا حق لأحد فى الخلافة غير بنى هاشم ولكنهم كانوا يجادلون عن هذا الحق جدالا عاطفياً قوامه إظهار الحب لبنى هاشم وتقرير قرابتهم للنبى ، ووصيته إلى علىّ فحسب ، وذلك خلال مديحهم لأئمتهم أو

(١) الهاشميات ص ٢ ، ٣.
(٢) الهاشميات ص ١٥٢ .

رثائهم لهم أو فى حملتهم على خصومهم من بنى أمية أو بنى الزبير كما رأينا ذلك فى شعر كثير الكيسانى .

ولكن الهاشميات تنهج نهجاً جديداً يعد فيه صاحبها رائداً من رواد الشعر العقائدى فقد انطلق مدافعاً عن نظرية الزيدية فى قصائد هى أشبه ما تكون بالمقالات العقائدية وصدر فيها عن ذوق عقلى محض يحفل بالفكر قبل العواطف والمشاعر فإذا بقصائده حجاج وجدال وصدى لما اشتهر به إمامه زيد من اقتدار على الجدل والإقناع وهو اقتدار اكتسبه من تلمذته على واصل بن عطاء رأس المعتزلة.

فالهاشميات إذن مناظرات فى حقوق الهاشميين لا تستند إلى الإقناع العاطفى الذى نلقاه عند بقية شعراء الشيعة وإنما تعتمد أولا وقبل كل شىء على الإقناع العقلى القائم على النظر العقلى المحض مستعينا فى استدلاله بما يتأتى له من آيات القرآن الكريم والقياس المنطقى على نظام التوريث فى الإسلام قاصداً أن يظهر بنى أمية غاصبين لحق بنى هاشم متناقضين مع أنفسهم فى زعمهم أن النبى لا يورث وفى ادعائهم أنهم ورثة الخلافة لقربا هم من رسول الله ويمضى يفند زعمهم بافتراض أن النبى لا يورث وفى هذه الحالة تكون الخلافة حقًّا مشاعًا للمسلمين جميعاً لا حكرة لقريش ولصار من حق القبائل العربية على اختلافها إذن أن تطالب بها ، يستوى فى ذلك شريفها ووضيعها ولكان الأنصار أيضاً أصحاب حق فيها ؛ لأنهم آووا ونصروا ، ولكن هذا لم يحدث فالافتراض إذن يسقط من أساسه والنتيجة أن الخلافة منصب موروث وأن بنى هاشم أحق الناس بها ، يقول الكميت :

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم ... فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم فى آل حاميم آية ... تأولها منا تقى ومعرب
وفى غيرها آياً وآياً تتابعت ... لكم نصب فيها الذى الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين نركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورّثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلا على الناس واجباً ... سفاها وحق الهاشميين أقرب

ولكن مواريث ابن آمنة الذى ... به دان شرقى لكم ومغرب
فدى لك موروثا أبى وأبو أبى ... ونفسى ونفسى بعد بالناس أطيب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم ... ونعتب لو كنا على الحق نعتب
يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ولخم والسكون وحمير ... وكندة والحيان بكر وتغلب
ولا نتشلت عضويين منها يحابر ... وكان لعبد القيس عضو مؤرب
وما كانت الأنصار فيها أذلة ... ولا غيبا عنها إذا الناس غيب
هم شهدوا بدراً وخيبر بعدها ... ويوم حنين والدماء تصبب
فإن هى لم تصلح لحى سواهم ... فإن ذوى القربى أحق وأقرب (١)

وهو يستهل هذه الأبيات التى تدور حول تقرير حق الهاشميين فى الخلافة بأن خاتم النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو خاتم الخلافة الذى تجوز به أمورها إنما هو خاتم الهاشميين وإن كان بنو أمية يستخدمونه اليوم غصباً من أصحابه وهو يقرر حقهم عن طريق الاستدلال بالقرآن الكريم فى سورة حاميم وغيرها من الآى الحكيم من مثل قوله تعالى: « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى» وقوله عز وجل: « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقوله سبحانه: « فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى » فهذه آيات ناطقات بحق بنى هاشم وفيها عذاب ونصب لبنى أمية إذ لا يستطيعون تأويلها ولا صرفها عن وجهها فالخلافة إذن حق بنى هاشم بحكم القرآن وقد اغتصبه بنو أمية فتولوا أمر المسلمين دون وجه حق مدعين أن آباءهم أورثوها إياهم ، ولكنه ميراث باطل لأن صاحب الحق الأول فى ذلك هو النبى — صلى الله عليه وسلم — فهو الذى يورث وبنو هاشم أولى بميراثه من غيرهم لأنهم آله الأقربون ، وبنو أمية يدعون زوراً ميراث الخلافة وفى الوقت نفسه يزعمون أن النبى لا يورث وهذا تناقض واضح على أنه إن لم يورث لكان معنى ذلك أن الخلافة حق للجميع وليست مقصورة على قريش ولطلبتها القبائل العربية من مثل بكيل

(١) الهاشميات ص ٣٧ .

وأرحب وعك ولخم والسكون وحمير وكندة وبكر وتغلب ولطلبت نصيبها يحابر ولكان لعبد القيس منها نصيب موفور بل لكان للأنصار الحظ الأوفر وهم الذين نصروا رسول الله .

إذن فالخلافة ميراث بدليل اختصاص قريش بها وما دامت ميراثا فلنتبع قانون المواريث ولنرجع بها إلى أهلها الحقيقيين ولنردها عليهم من أيدى المغتصبين فهى تركة الرسول وبنو هاشم أقرباؤه الذين حرمتهم منها الفئة الباغية التى ادعت لنفسها إرثها ومنعتها آل الرسول صاحبها الأول فهو أولى منهم به وأولى بميراثه .

وبهذا الجدل الصرف والاحتجاج الخالص يتحول الشعر الشيعى عند الكميت وفى هاشمياته بالذات حججاً وأدلة وأقيسة تماما كمقالات المتكلمين وبالأخص المعتزلة عندما يقررون مسألة من مسائلهم وكان هذا لونا مبتكراً لم يعرف لشاعر من قبل وإن عرفه شعراء بعده تأثراً به فظهر الجدال فى شعر مروان بن أبى حفصة الذى كان بوقاً للعباسيين وناظره فى حقهم محمد بن يحيى التغلبى العلوى (١) .

ولكننا لا ننتظر حتى العصر العباسى لنجد آثار النهج الذى نهجه الكميت وإنما كان له آثار باكرة تجلت فى نزوع شاعر كإبراهيم بن المهاجر البجلى وهو من دعاة آل العباس فى عهد مروان بن محمد إلى الاستدلال على بنى أمية استدلالا كميتيًّا إذا صح لنا أن نقول ذلك على هذه الصورة فى قوله :

أيها الناس اسمعوا أخبركم ... عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبد شمس إنهم ... فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا ... دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه ... يحرز الميراث إلا من قرب (٢)

وهكذا يذهب شعر الشيعة فى عدة أغراض متميزة تستغرقها منازع واضحة من حب آل البيت وتفضيلهم على من عداهم من الفرق والطوائف والأحزاب

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ٩٤ .
(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣٤ .

واستشعار الولاء لهم وحدهم ولاء قد يؤدى ببعضهم إلى الزهد فى الدنيا وببعضهم الآخر إلى الثورة على بنى أمية ثورة تطوى فى أحنائها حقداً شديداً ورغبة ملحة فى الثأر وسفك دماء الظالمين الذين سفكوا دماء أئمتهم وزعماء حركاتهم ودعاتهم البارزين وهم دائما يبكون شهداءهم ويغرقون أشعارهم فى ألوان قاتمة من الحزن واللوعة والتفجع واصمين أعداءهم بالكفر والجور والاستبداد والطغيان مناضلين عن حقهم المغتصب وعن نظريتهم الشيعية كيسانية كانت أو زيدية حتى لتمثل الأولى بوضوح فى شعر كثير وتمثل الثانية على أدق صورة فى شعر الكميت الذى استحال شعره فى الانتصار للهاشميين حجاجاً عقلياً صرفاً قائماً على النظر العقلى المحض والقياس المنطقى والاستدلال .

٣

ويتميز شعر الشيعة بمميزات خاصة تفرده عن بقية شعر الفرق الأخرى، وأولى هذه المميزات أنه شعر كثير استطاع أن يواكب أحداث الشيعة جميعها مما يجعله بمثابة وثيقة تاريخية كما أتيح له أن يعبر عن أغراض مختلفة اتخذها الشيعة وسيلة إلى تحقيق هدفهم كما قرر حقيقة مذهبهم بكل تفاصيله مما يجعله وثيقة مذهبية جليلة الخطر ولا سيما أنه يكمل أحياناً بعض أفكارهم التى لا نكاد نجدها بتمامها فى كتب الفرق .

ويتميز شعر الشيعة أيضاً بأن كثيراً من النحل قد دخل إليه فهناك ديوان منسوب لأبى طالب عم النبى تدور أشعاره حول ما وقع بين النبى وقريش من أحداث ، وأكثر هذا الشعر منحول لتوافر الدواعى عند الشيعة المحدثين لتزيين سيرة النبى فى أول البعثة بمكة بكثير من الأشعار بعد أن كثرت الأشعار فى سيرته بالمدينة فضلا عن أن شيعة علىّ قد أرادوا أن يشيدوا بمعاونة أبيه للنبى ليتسنى لهم وضعه ووضع علىّ فى مكان بارز .

ويستنتج بعض الباحثين أن هذا الشعر قد وضع من قديم لأنه لم يزل يذكر

بنى هاشم وحدة واحدة لم تفترق بعد إلى علويين وعباسيين وأنه لهذا السبب قد ظنت صحة هذا الشعر إذ روى أكثره ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ فى سيرة النبى [١].

ولا شك أن الشعر المنسوب إلى على بن أبى طالب أحدث من ذلك وضعاً ولا شك أيضًا فى أن علياً كان على سليقة من الشعر يقول أبياتاً من الرجز فى النزال شأنه فى ذلك شأن الكثيرين ، ولكن المشكوك فيه هو اشتمال الديوان المنسوب إليه على أشعار صحيحة .

ولم يخف ذلك عن القدامى فعرفوا كثيراً من الشعر المنحول على على [٢] ويذكر ابن قتيبة أنه رأى ديواناً منحولا عليه [٣] ويروى أن الزمخشرى لا يرى لعلى شعراً غير بيتين اثنين [٤] واسم الديوان المنسوب إلى على أنوار العقول لوصى الرسول من تصنيف أحد أربعة رجال يختلف الباحثون فى تعيينه أولهم سعدى ابن تاجى وثانيهم قطب الدين سعيد بن وهبة الله الراوندى وثالثهم هو قطب الدين أبو الحسن محمد بن الحسين بن الحسن البيهقى النيسابورى الحيدرى ورابعهم الشريف المرتضى [٥] وقد نسب الشعر تقريباً لجميع الأئمة العلويين فنسب إلى الحسن وإلى الحسين وإلى ابن الحنفية أيضًا . كما نحل شعر كثير منسوب إلى غير قائل وإلى الجن كذلك .

وشعر الشيعة شعر سياسى إذ أن جميع أغراضه السابقة من مدح وهجاء ورثاء وتحريض وتقرير للمذهب والعقيدة لا يستهدف غير الدفاع عن حقهم المسلوب فى الخلافة ، وحتى شعرهم الذى ذهب فى أغراض أخرى من مديح اضطرارى لبنى أمية يمضى فى هذه الوجهة أيضًا فقد كان تقية وحفاظاً على الدم من أجل الاستمرار فى العمل والتمكين للمذهب والانتصار له ، ولهذا نستطيع

---

(١) بروكلمان تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٧٥ .
(٢) معجم الشعراء ص ٢٧٩
(٣) عيون الأخبار ص ٣ ، تفسير الطبرى ج ٦ ص ١١٠
(٤) الموازنة بين الشعراء ص ٢٩
(٥) بروكلمان تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٨٠ .

أن نعد شعر الشيعة كله شعراً سياسيًّا مذهبيًّا لأنه يدعو بمختلف الوسائل إلى نظرية اعتقادية فى الخلافة وضرورة توارثها فى آل البيت .

ولما كان مذهبهم يدور حول الخلافة وهى فى اعتقادهم منصب موروث يستند إلى أسس مستمدة من القربى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتشترط فيه شرائط العلم والزهد والشجاعة والسخاء والعدل وكلها صفات لها طابع دينى فإننا نستطيع أن نزعم أن شعر الشيعة شعر سياسى دينى ، لأن الشيعة قد صبغت الخلافة أو معناها الدينى بصبغة الملك الوراثى فكان شعرهم تبعًا لذلك شعراً سياسيًّا مصبوغًا بصبغة الدين .

ويبدو أن عنصر السياسة كان أقوى لديهم من عنصر الدين فقد صانعوا بنى أمية وغير بنى أمية ومهما كان من أمر التقية وأنها تجيز مدح الخصوم والأعداء ونوال عطاياهم فهى مصانعة فى سبيل المذهب آخر الأمر أو بعبارة أخرى كان نجاح مذهبهم سياسيًّا غاية تبرر وسيلتهم وليس كذلك الخوارج فى شعرهم لأن عنصر السياسة لم يتغلب لديهم على عنصر الدين ، وقد مدح الكميت بنى أمية حفاظًا على دمه وهو فى نفس الوقت قد بخل بدمه عن نصرة إمامه وأيضًا فإن أيمن بن خريم مدح الأمويين واتصل بعبد الملك بن مروان وشخص إلى مصر فمدح واليها عبد العزيز بن مروان ثم تركه مغضبًا إلى الكوفة لمدح بشر ابن مروان[1] .

وقد نكل أيمن عن الحرب وآثر السلامة على المنافحة عن دينه وتعلل باعتزال الفتنة وإن لم يعتزل العطاء فى مثل قوله : —

إن للفتنة ميطًا بيننا ... فروید المیط منها تعتدل
فإذا كان عطاء فارتهم ... وإذا كان قتال فاعتزل
إنما يسعرها جاهلها ... حطب النار فدعها تشتعل[2]

وكان كثير على كيسانيته يمدح عبد الملك ويستوهبه ويشيد بإنعامه عليه وكان

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢١٤
(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١١٠

يعلل ذلك بأنه إنما يسخر منهم ويجعلهم حيات وعقارب ويأخذ أموالهم [١] وكان يحصل على أموالهم حقًّا ولكنه فى نفس الوقت كان يخدم سياستهم بمديحه لهم وبتجافيه عن الزبيريين أعداء إمامه وهجائهم فكان ذلك يرضى بنى أمية وفى نفس الوقت لا يغضب الشيعة لثقتهم فى ولائه لمذهبهم وإنه إنما يمدح بنى أمية تقية من ناحية وجرياً وراء الكسب من ناحية أخرى كما كان إمامه يصانع بنى أمية إن كان فى مصانعتهم جدوى له ولمذهبه وكذلك كان السيد الحميرى يمدح بنى العباس وهو على كيسانيته ويرى فيهم مخلصًا من بنى أمية فهم هاشميون على أقل تقدير.

ولكن الصبغة الدينية على الرغم من ذلك واضحة فى شعرهم وضوحًا بيناً ويتجلى هذا فى إشادتهم بحب آل البيت واستقائهم من هذا الحب سعادة ومثوبة وقربى من الله سبحانه وتعالى كما رأينا — فى قول أبى الأسود الدؤلى : —

أحبهم كحب الله حتى أجىء إذا بعثت على هويًّا

كما يجدون فى حبهم زاداً يقنعون به عن متاع الدنيا ويميلون بوحى منه إلى الزهد فيها كما رأينا فى قول حرب بن المنذر بن الجارود : —

فحسبى من الدنيا كفاف يقيمنى وأثواب كتان أزور بها قبرى
وحبى ذوى قربى النبى محمد فما سالنا إلا المودة من أجر

ولا يزيدهم اللوم إلا تماديًا واستغراقاً فى هذا الحب الذى يعده اللوام ذنباً ويعده الشيعة كفارة للذنوب كما فى قول عبد الله بن كثير السهمى : —

أيعد ذنباً أن أحبهم بل حبهم كفارة الذنب

أو يندفعون بوحى من هذا الحب فى ملاحاة خصومهم والحملة عليهم وينعتونهم خلال ذلك بنقائص الصفات التى يكسبونها أئمتهم فإذا اتصف أئمتهم بالعدل والعلم والزهد والسخاء والشجاعة فبنو أمية جائرون لا يجيدون تدبير أمور الرعية طامعون ناهبون لأموالهم باخلون بها وهم على كل حال بعيدون عن روح الدين

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ .

وسماحته وعدله ورحمته بعداً يسلكهم فى ملة أخرى غير ملة الإسلام .

فإذا ما رثوا أئمتهم اجتهدوا فى أن يسبغوا عليهم قداسة دينية هائلة يسمون بها فوق غيرهم من البشر ويصورونهم شهداء فى سبيل إعلاء كلمة الله وإحقاق الحق ، وأنهم قتلوا بأيدى الجبابرة الجائرين المغتصبين فصارت دماؤهم حلا للشيعة يجب سفكها ثأراً لهم وهو واجب لا يقل قداسة عن أى واجب آخر من الواجبات الدينية ، كما يبدو فى أبيات عبدالله بن الحر التى يندم فيها على عدم نصرة الحسين ويدعو لأولئك الذين أتاح لهم الحظ أن يذودوا عنه وأن يقتلوا بين يديه بعد أن أدوا واجبهم ونصروا ابن بنت نبيهم ، وإنه كثيراً ما يهم بالخروج للثأر له من الفئة الزائغة عن الحق ويبدو أنه لا بد خارج يوما فى كتائب شديدة الوقع على الظالمين يقول ابن الحر : —

فيا ندمى ألا أكن من حماته ... ألا كل نفس لا تسدد نادمه
سقى الله أرواح الذين تآزروا ... على نصره سُقيا من الغيث دائمه
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم ... بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه[1]

وهكذا ينطبع الشعر الشيعى على اختلاف أغراضه بطابع السياسة الدينية أو — السياسة المصبوغة بصبغ دينى كما ينطبع بطابع آخر هو طابع الحزن القاتم الذى يرين على أشعارهم مهما اختلفت أغراضها فهم فى مديح أهل البيت يستشعرون الولاء لهم لأنهم أصحاب حق مغلوبون على أمرهم وهم فى رثائهم يبكونهم ويستشعرون اضطهاد خصومهم لهم وجورهم عليهم ، وكذلك فى نزوعهم إلى التحريض على الثورة وهو تحريض يتحول لديهم إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء وكل هذا بطبيعة الحال ينبعث عن إحساس مرير بالنقمة والحزن الشديد .

وشعرهم فى هذا المجال ملتهب حار لأنه تعبير عن عواطف صادقة وتنفيس عن نفوس مكلومة ومسلوبة ومغصوبة الحق فهم محزونون كثير و البكاء مضطهدون

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٧٠ .

ولهذا برعوا فى تصوير ما نزل بهم من نكبات ووازنوا بين حالهم وحال غاصبيهم وانعكس حزنهم القاتم على الطبيعة وعناصرها فاستلهموها والتصقوا بها وبثوها شجونهم فإذا كل شيء فى الحياة أسود قاتم وإذا الشعر دموع سخينة لا ترقأ فالشمس مريضة والأرض محمرة والبلاد ترتعش هولا من مقتل الحسين وهذه هند ابنة حجر بن عدى تخاطب القمر وتناجيه أن يصحب أباها فى مسيره إلى دمشق ، والأرض قد محلت بعد لخصب كأن لم يحيها المزن المطير وهو التصاق بالطبيعة وسكب للمشاعر الحزينة عليها يجعلنا نرى بوضوح حرارة عواطفهم وصدقهم فى شعرهم .

فإذا ما كان شعرهم بصدد مجادلة الخصوم عن حقهم رأينا شعرهم ينأى عن حب آل البيت والعاطفة الملتهبة ويلتحم بالعقل التحاما شديداً فإذا هو حجاج عقلى خالص يستعان فيه بأدلة منتزعة من الكتاب والسنة ليقرر حق الهاشميين فى الخلافة والسلطان ثم ينتهى إلى إظهار المشاعر نحو أصحاب الحق الحقيقيين بعد أن يثبت لهم بالإقناع المنطقى والاستدلال العقلى .

ويتميز شعر الشيعة أيضًا بطابع شعبى موغل فى الخيال إلى حد الخرافة الأسطورية وهو أثر من آثار التطرف فى المذهب والغلو فى الاعتقاد وكذلك هو أثر من آثار الاضطهاد الشديد الذى تعرضوا له .

وتلقانا أمثلة لهذه الخرافات التى كانت تجد تصديقاً يقينيًّا بين الشيعة فى شعر مجهول القائل فى أكثر الحالات من ذلك ما أشاعته السبئية من أفكار التناسخ والحلول والرجعة والقول بالقبس الإلهى فى علىّ وقد أدى ذلك ببعضهم إلى الاعتقاد فى ألوهيته وقد رفع أمر هؤلاء إلى علىّ فأمر علىّ بإحراقهم فى حفرتين فقال قائلهم :

لترم بى الحوادث حيث شاءت إذا لم ترم بى فى الحفرتين[1]

ونفى علىّ ابن سبأ إلى المدائن ، فلما قتل علىّ رفض ابن سبأ أن يصدق أنه قتل وزعم أن المقتول شيطان على صورته وأن عليًّا صعد إلى السماء كما صعد

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ .

عيسى وأنه ينزل إلى الأرض فينتقم من أعدائه كما زعم فريق من أتباعه أنه فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وكان من سمع من هؤلاء صوت الرعد قال عليك السلام يا أمير المؤمنين ؛ وقد عجب من ذلك أحد الشعراء فندد بهذا الغلو وسخر منه ، فقال إسحاق بن سويد العدوى : —

برئت من الخوارج لست منهم ... من الغزّال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليًّا ... يردون السلام على السحاب
ولكنى أحب بكل قلبى ... وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبًّا ... به أرجو غداً حسن الثواب[١]

وكان الغلاة من الشيعة يزعمون أيضًا أن المواد النورانية لعلى وآل بيته متحدة بعرش الله ، فذهبوا فى إحدى خرافاتهم إلى أن الحسن والحسين كانا يحملان تعويذتين حشوهما من زغب جناح الملك جبريل[٢] .

وقد غلب العنصر الأسطورى على أشخاص الأئمة العلويين وكان ذلك نتيجة للتعارض التام بين ما يسبغه عليهم الشيعة من تقديس مبالغ فيه وما يلقونه من الأمويين من اضطهاد شديد ومن ذلك ما ذهب إليه الشيعة فى تعليل وفاة زياد بن أبيه وكيف أنه أصيب فى يده ببثرة حكها فتسببت فى موته فقد عزوا ما وقع له إلى إصراره على لعن علىّ من فوق المنابر ويستدلون على ذلك برؤيا يزعم بعضهم أنه رآها ورأى فيها شبحاً يدعى ذا الرقبة برز لزياد فاقتص منه لعلىّ كما قال عبد الله بن السائب فى ذلك : —

ما كان منتهياً عما أراد بنا ... حتى تأتى له النقاذ ذو الرقبه
فأسقط الشق منه ضربة ثبتت ... لما تناول ظلما صاحب الرحبه[٣]

ويذهب بعض الباحثين الغربيين إلى أن الشيعة استعاروا الأسطورة القديمة التى نسبت حمرة الشمس إلى دم أدونيس الذى قتله الخنزير البرى فنسبتها

---

(١) الفرق بين الفرق ص٢٢٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٤ ص ١٦٣ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٨ .

الأسطورة الشيعية إلى دم الحسين الذى سفك فى كربلاء وادعت أن غروبها قبل مقتله لم يكن أحمر اللون [١] فهم يزعمون أنه لما قتل الحسين بكت عليه السماء معولة وكانت علامة ذلك حمرة أطرافها وإن حمرة أطراف السماء لم تكن قبل قتل الحسين فلما قتل ارتفعت حمرة من قبل المشرق وحمرة من قبل المغرب فكادتا تلتقيان فى كبد السماء ستة أشهر وكسفت الشمس كسفة يوم مقتله وبدت الكواكب نصف النهار حتى ظن أنها الشمس وأمطرت السماء دما ورماداً .

وفى هذا المعنى يقول السيد الحميرى الكيسانى : —

بكت الأرض فقده وبكته باحمرار له نواحى السماء
بكتا فقده أربعين صباحاً كل يوم عند الضحى والمساء[٢]

وكذلك زعم الشيعة أن الملائكة قاتلت معه فى كربلاء وأن الجن ساعدته وندبته وناحت بشعر كثير فى رثائه من مثل قولهم : —

احمرت الأرض من قتل الحسين كما اخضر عند سقوط الجونة العلق
يا ويل قاتله ، يا ويل قاتله فإنه فى شفير النار يحترق[٣]

وقد اشترك فى رثائه رجال الجن ونساؤهم ومن نوحهن هذه المقطوعة الطريفة : —

نساء الجن يبكين من الحزن شجيات
ويسعدن بنوح لا نساء الهاشميات
ويندبن حسيناً عظمت تلك الرزيات
ويلطمن خدوداً كالدنانير النقيات
ويلبسن ثياب السو د بعد القصبّيات[٤]

وتروى فى نقل رأس الحسين من كربلاء إلى الشام قصة غريبة تكشف عن حقيقة الإيمان الأسطورى بتقديس الحسين ، ذلك أنه لما قتل الحسين

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٢٢٠
(٢) مناقب آل طالب جـ ٣ / ص ٢١٢ ، ٢١٣
(٣) نفس المرجع جـ ٣ ص ٢١٩
(٤) مناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢١٩

واحتز رأسه قعد حاملو الرأس بأول مرحلة من الطريق وانغمسوا فى المعاصى وجلسوا يشربون النبيذ ويتحيون بالرأس ، فإذا قلم من حديد يخرج عليهم من حائط فيكتب بالدم هذا البيت : —

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب

وما كادت الجماعة تشهد هذا حتى فرت هاربة وتركت الرأس ، وفى رواية أخرى أنهم وجدوا ذلك مكتوباً فى كنيسة ويروون أيضاً عن أنس بن مالك أن رجلا من أهل نجران احتفر حفرة فوجد فيها لوحاً من ذهب مكتوب فيه هذا البيت الذى ذكرناه وبعده هذان البيتان :

فقدقدموا عليه بحكم جور فخالف حكمهم حكم الكتاب
ستلقى يا يزيد غداً عذاباً من الرحمن يا لك من عذاب

فلما سئل أصحاب الكنيسة : منذكم هذا فى كنيستكم ، قالوا : قبل أن يبعث نبيكم بثلاثمائة عام . ويذهب استشراف الخيال الشيعى إلى أبعد من هذا فينسبون إلى سعد بن أبى وقاص أن قس بن ساعدة الأيادى قال قبل مبعث الرسول : —

تخلف المقدار منهم عصبة ثاروا بصفين وفى يوم الجمل
والتزم الثأر الحسين بعده واحتشدوا على ابنه حتى قتل[1]

وهكذا وجد خيال الشيعة فى مقتل الحسين منطلقاً رحباً للجموح والغلو والإغراب ، مما يكشف عن بواطن الوجدان الشيعى الحقيقى كشفاً نفسياً دقيقا .

وقد أداهم الاضطهاد الذى لا قوه على أيدى خصومهم إلى أن يعتقدوا عقيدة الرجعة وهى إحدى العناصر الجوهرية فى نظرية الإمامة عند كافة الفرق الشيعية باستثناء الزيدية التى رأت خروج الإمام شرطاً لصحة إمامته .

ولا تختلف تلك الفرق التى تعتقد فى الرجعة إلا فى شخص الإمام الخفى الذى قدرت له العودة وقد ساعد على وجود هذه العقيدة وذيوعها ما مهدت به

(١) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢١٨

السبئية من إنكار موت علىّ واتجهت بعد ذلك عقيدة الرجعة إلى محمد بن الحنفية وآمن الكيسانيون بحياته ورجعته .

ولم تجد البيئة السبئية غضاضة فى إطلاق لفظ المهدى على الخلفاء وكذلك استخدمه شعراء بنى أمية فى مديحهم للخلفاء الأمويين بإفراط يلفت النظر كما فى أشعار جرير مما يعد آثراً واضحاً من آثار الشيعة على وجدان هؤلاء الشعراء ومن يتلقون شعرهم .

ولكن الشيعة كانوا يستخدمون الكلمة للدلالة على عقيدة آمنوا بها إيماناً شديداً، ولم تكن تلك العقيدة وما ينطوى فيها من آمال سوى زفرة الأسف والانتظار يصعدونها فى غمرات ظروف سياسية واجتماعية لا تتفق وما يعتلج فى ضمائرهم من رغبات إذ أن ظروف الحياة أظهرت تناقض الواقع مع مقتضيات المثل التى كانوا يصبون إليها والأحلام التى استشرفوها فتجلت لهم الحياة بملابساتها المخيبة لآمالهم آثاما ومعاصى ومخالفات للدين وللعدل ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك أنهم لم يكونوا دائما أو فى أكثر الحالات فى الموضع الذى يتيح لهم أن يغيروا هذا الواقع بالقوة المادية فلا أقل من أن يغيروه بقوة الخيال والأمل فى مخلص من آل البيت يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ويعيد سنن النبى التى درست ويرد حق أسرته المهضوم .

وقد وجد شعراء الشيعة فى هذه العقيدة مجالا خصباً لآمالهم وأخيلتهم الجامحة فعبروا عن الأمل فى عودة المهدى تعبيراً معجباً وصوروه تصويراً رائعاً وأيضاً فقد عبروا عن سوء حالة المسلمين التى ألجأت إلى القول بهذه العقيدة .

وإذا ما قرأنا أبياتاً للحارث بن عبد الله الحشرج الجعدى يصور فيها حالة المسلمين ، وما كانوا عليه فى ذلك العصر من فرقة وتحير وفتنة استوى فيها السفيه والعاقل والجاهل والعالم وما أصبح الناس فيه من ضلال وعماية لم يستكثر على الشيعة المضطهدين أن يستشعروا الحاجة إلى مخلص يغير هذا الواقع الأليم الذى تصوره الأبيات على هذا النحو :

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً إذا استقلت تجرى أوائلها

من فتنة أصبحت مجللة ... قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن ... بالشام كلٌّ شجاه شاغلها
فالناس منها فى لون مظلمة ... دهماء ملتجئة فى غياطلها
يمسى السفيه الذى يعنف بالـ ... جهل سواء فيها وعاقلها
والناس فى كربة يكاد لها ... تنبذ أولادَها حواملها
يغدون منها فى كل مبهمة ... عمياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس منها فى عواقبها ... إلا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ ... لى طرقت قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته ... فيها خطوب حمر زلازلها[1]

ولننظر أيضاً فى أبيات لدعبل الخزاعى يرثى فيها الشيعة ويندد ببنى أمية وبزياد بن أبيه ولكنه يعزى فيها نفسه ويحملها على الصبر انتظاراً لمهدى يرد للشيعة حقهم ويسعد الناس بحكمه العادل ، يقول : —

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أوغد ... لقطع قلبى إثرهم حسراتى
خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ... ويجزى على النعماء والنقمات
فيا نفس طيبى ثم يانفس أبشرى ... فغير بعيد كل ما هو آت
فإن قرب الرحمن من تلك مدتى ... وأخر من عمرى لطول حياتى
شفيت ولم أترك لنفسى رزية ... ورويت منهم منصلى وقناتى[2]

وتتمنى السيد الحميرى أن يطول عمره أيضاً ليحظى بشهود رجعة ابن الحنفية ويدرك دولته العادلة حتى مع الذين بغوا عليه ، فيقول : —

ومالى أن أمر به ولكن ... أؤمل أن يؤخر يوم فقدى
فأدرك دولة لك لست فيها ... بجبار فتوصف بالتعدى

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣٨
(٢) معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٠٩

على قوم بغوا فيكم علينا لتعدى منهم يا خير معد
لتعل بنا عليهم حيث كانوا بغور من تهامة أو بنجد[١]

وقد أخذ الشعراء يصورون صفات المهدى ويرسمون سماتها وصفاً شيقاً ، فهو هاشمى مرضى السياسة يكون بمثابة الربيع لأمته والأسد المحامى عنها والمقوم لاعوجاجها كما فى قول الكميت :

بمرضى السياسة هاشمى يكون حيا لأمته ربيعا
وليثاً فى المشاهد غير نكس لتقويم البرية مستطيعا
يقيم أمورها ويذب عنها ويترك جدبها أبداً مريعا[٢]

والمهدى فى شعر الكيسانية حىّ لا يذوق الموت ولا يلبث أن يعود قائداً للخيل من هناك حيث كان ينعم فى غيبته برضوى بكل ما هو طيب وعنده عسل وماء يسقاهما : —

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء[٣]

وهو طوراً آخر فى شعب من شعاب رضوى المورقة يحظى بصحبة الملائكة الأبرار وبحديثهم الشهى وذلك لأنه حىّ لم يمت ولم توار عظامه أرض ما ، وإنما هو هناك فى مقيل ومنتدى من منتديات الكرام كما يقول السيد الحميرى :

لقد أمسى بمورق شعب رضوى تراجعه الملائكة الكلاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له أرض عظاما
وإن له به لمقيلَ صدق وأندية تحدثه كلاما[٤]

وسيظل فى غيبته هذه سنين وأشهراً حتى يظن ضعاف الإيمان موته ولحده

---

(١) الأغانى جـ ٧ / ص ٤
(٢) الهاشميات ص ٣
(٣) ديوان كثير جـ ٢ ص ١٨٥
(٤) الأغانى جـ ٧ ص ٦

ولكنه هناك فى رضوى بين نمور وأسد تحرسه وآرام وعين تروح وتغدو آمنة بين سباع لا تفترسها ولا تؤذيها لأنها آمنت به فراحت ترتع فى كل مكان بلا خوف ، يقول السيد :

تغيب عنهم حتى يقولوا تضمنه بطيبة بطن لحد
سنين وأشهراً ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين وحفان تروح خلال ربد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهن مفترسا بحد
أمنّ به الردى فرتعن طوراً بلا خوف لدى مرعى وورد[1]

فهذه طوابع تطبع الشعر الشيعى على اختلافه ، فهو شعر سياسى حقًّا ، ولكنه وإن توسل بالدين ليسبغ على دعوته السياسية صبغاً دينيًّا فإن اللون السياسى فيه أكثر وضوحاً وهو شعر عاطفى حزين حزناً بالغاً متميزاً حتى ليصدق عليه أنه بكائيات حزينة وهو شعر وجد فيه لأول مرة الحجاج العقلى المحض الذى يستند إلى الإستدلال والقياس ويستحيل فى شعر الكميت إلى مناظرات عقلية صرفة وأخيراً فهو شعر ينطبع بطوابع شعبية واضحة أملاها غلو فى العقيدة وتطرف فى المذهب كما أدت إليها ظروف الاضطهاد والسحق التى نزعت بهم إلى الأحلام الهروبية بمخلص يغير الواقع القاسى الذى يتناقض بشدة مع مثلهم ورغباتهم .

وحقًّا فإن أسلوبهم خلال هذه الموضوعات المتنوعة ذات الطوابع المختلفة يختلف فى وضوح باختلاف الباعث وأشعارهم فى حب آل البيت رقيقة الأسلوب حارة العاطفة متدفقة الإحساس من مثل قول الكميت فى الهاشميين : —

ومن غيرهم أرضى لنفسى شيعة ومن بعدهم لا من أجل وأرجب
إليكم ذوو آل النبى تطلعت نوازع من قلبى ظماء وألبب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم وطائفة قالوا مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفيرهاتيك منهم ولا عيب هاتيك التى هى أعيب

---

(٤) الأغانى جـ ٧ ص ٤

يعيبونني من خبهم وضلالهم على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترابى هواه ورأيه بذلك أدعى فيهم وألقب[١]

ويزداد شعرهم رقة فى الأسلوب وعذوبة وصفاء فى الرثاء حتى ليصير دموعاً خالصة من مثل قول عبد الله بن خليفة فى رثاء حجر بن عدى إذ يقول : —

فدع عنك تذكار الشباب وفقده وأسآره إذ بان منك فأقصرا
ويك على الخلان لما تخرموا ولم يجدوا عن منهل الموت مصدرا
وما كنت أهوى بعدهم متعللا بشيء من الدنيا ولا أن أعمرا
أقول ولا والله أنسى اذكارهم سجيس الليالى أو أموت فأقبرا[٢]

ولكن أسلوبهم يتحول فى الخصومة إلى سهام قوية مهتاجة تسدد إلى صدور الخصوم وتصب الويل والثبور وتندد بالظلم والعسف والبعد عن سنن الدين وتعطيل أحكامه من مثل قول الكميت فى بنى أمية : —

فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التى نتنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل[٣]

وأحياناً يجنح الهجوم إلى السخرية المرة كما فى قول عبد الله بن همام السلولى فى تولية العهد ليزيد بن معاوية حين قال : —

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا[٤]

وكسخرية يزيد بن مفرغ الحميرى من استلحاق معاوية لزياد فى قوله : —

أنغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زانى[٥]

فإذا ما جنحوا للحجاج مع الخصوم جاء الأسلوب رائقاً من شوائب العاطفة

---

(١) الهاشميات ص ٢٧ وما بعدها
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٦٠
(٣) الهاشميات ص ١٢٣
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٩
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣١٢

حرًّا من إيحاءات الشعور بحيث لا يسمح بمرور شيء غير الفكر المجرد والنظر العقلى المحض فى هدوء ورزانة وصبر على المناظرة والجدل والاحتجاج والتقرير ولكنه قد يسف ولا يسقط وإن مال إلى النثرية حتى عده بعض النقاد خطابة وليس شعرا[1] ولم يكن ذلك إلا نتيجة لغرابة هذا الاتجاه عن الذوق الشعرى المألوف فى أساليب الشعر التصويرية ونحن لا نستطيع بحال أن نحاكم شاعراً مذهبيًّا كالكميت إلى هذا الذوق المألوف لأنه لم يكن يعنى بفنه كشاعر وإنما عنى به كداعية يدعو لمذهب ونحلة معينة .

وهكذا عبر شعر الشيعة عن أحداثهم وعقائدهم تعبيراً شاملا جيداً فى موضوعاته ومعانيه وأساليبه ولم يقصر الأسلوب عن النهوض بالتعبير إلا فيما نلاحظه بشأن تلك الأشعار ذات المضمون الشعبى المجهولة القائل ففيها ركاكة واضحة وضعف بين وهو أمر طبيعى فى كل الفنون الشعبية التى لا تخضع لمراحل الصقل والتهذيب والتنميق . أما بقية شعرهم فتساوق الأسلوب فى الجودة مع المعانى إلى حد كبير معتمد على القرآن اعتماداً ملحوظاً بحكم حرصهم على صبغ سياستهم وأفكارهم بصبغ دينى شرعى وفى هجومهم بوجه خاص على سياسة بنى أمية المجافية للمثل الدينية والخلقية التى أتى بها الإسلام حتى لقد لاحظ عبد الملك بن مروان ذلك حين قال لبعض شعراء بنى أمية : يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد ومرة بالجبل الوعر ومرة بالبحر الأجاج ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم فى بنى هاشم : —

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء[2]

على أنه يلاحظ أن شعرهم كثير ، بل لا نعدو الحقيقة فى زعمنا أن شعرهم هو أكثر شعر وجد لفرقة من الفرق فى عصر بنى أمية على الإطلاق ، وعلى الرغم من ذلك فهو شعر متمايز لتمايز الشعراء الشيعيين أنفسهم فلم يختلط شعر شاعر منهم بشعر شاعر آخر إلا فيما ندر فقد كان لكل منهم نزعاته الخاصة الأصيلة التى يصدر عنها وكان تشيع كل منهم مكما لها كما سنتعرض لذلك فى درسنا لشعرائهم .

---

(١) أمالى المرتضى جـ ١ ص ٤٢ (٢) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠